ابن عمار

ثروت أباظة



ثروت اباظه

ابن عمار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١ ـ عـــودة

أهكذا يعود ! ! يا لها من آمال عراض تلك التى صحبها يـوم تـرك موقفه هذا منذ سـنين ... إنـه لم ينس بعد تلـك الأمـانى العذبـة التـى كانت تزحم نفسه يوم ضاق به العيش فى بلدته « شلب » فنزح عنها وفى نفسه آمال ، وفى قلبه أمان ، وفى صدره عزم ، وفى كـل دمائـه شعر ... لقد ترك بلدته مهد ميـلاده ومـدرج طفولتـه ومغنـى شـبابه ؛ ليدور بشعره على الملوك يسترفد مالهم بما يرفـده عليهـم مـن شـعره ، ولقد دار ، ولقد مدح ، فبـالغ فـى المديـح . ولقـد كـذب علـى الحق فأوغل فى الكذب ، ولقد أمات ضميره ليجعـل الظـالم منهـم عـادلا ، والمجنون فيهم حكيماً ، ولقد محا من ذاكرته كل ما يعرفـه عـن هـؤلاء الملوك من شر ، ولقد أنمـى بشـاعريته كـل مـا كـان يعرفـه عنهـم مـن خير ... ثم هو زاد عليه ، ثم هو أنشأ لهم الخير ، ثم هو قلب مقـابحهم أفضالا ، ثم مدح ، ثم مد يده وثناها ... ألا ما أبخس ثمن الضمير فـى رحاب الملوك ... إنه ليفكر أنال كفـء ما أعطى ؟ أكانت تساوى هذه

الدريهمات خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه ؟...بل أتعدل هذه الدريهمات أن يترك بلده الحبيب ... إن يكن ضاق به فها هى ذى الدنيا جمعاء تضيق به ... ولكن أضاقت الدنيا أو ضاقت « شلب » به هو .. أم أنها ضاقت ببضاعته ... وكيف تضيق ؟؟ إنه يبيع شعراً ... إنه يهب لمادحه فكراً انتظم فصار شعراً ... أهذا قليل !! ما شأن ممدوحه إن خالج هذا الفكر شعور أو لم يخالجه ... ألم ينظم شعراً ... ألم يحسن ما نظم ؟ فما هذه الدريهمات الضئيلة التى يصيبها !! فأين هذا العدل الذين يزعمون وجوده فى الدنيا ؟! وأى دنيا التى تجعل الشاعر العبقرى يتمسح بأبواب الجهلة من الملوك والوزراء !! يسكب عليهم شعره فلا يصيب منهم غير هاته الضحكة البلهاء التى تلتصق بشفاههم يحاولون بها إفهامه أنهم يفهمون ما يقول ، ويحاولون بها أن يصدقوا هم فى أنفسهم أن هذا المديح الذى يسمعون حق لا رياء فيه ولا كذب . ثم هو لا يصيب من بعد إلا هذه الدريهمات يلقونها إليه إلقاء !! ولو تجسمت السعادة التى يحسونها بالمديح ، ولو وضعت مجسمة فى كفة لما عادلها مال العالم أجمع . ولكنهم مع هذا يبخسونه حقه ، واهمين أن ما قاله لا يعدو الحق فى شىء ، فهو لم يخلق جديداً ، ولم يمت ضميراً ، ولم ينشئ فضلا ، ولم يقلب القبح حسناً ، وهو لا يستحق إلا هذا القليل .

هكذا كان يفكر ابن عمار وهو واقف بأبواب « شلب » عائداً إليها من سفره هذا الطويل وقد تضاءلت آماله ، فبعد أن كانت تهفو إلى الغنى والشهرة والجاه العريض ، أصبحت تحوم حول حفنة من الغلال يقيم بها أود نفسه وأود حماره الذى أضناه السفر فى تحقيق الآمال .

دخل ابن عمار « شلب » راكباً حماره الهزيل يفصله عن ظهره خرج قديم قذر كان هو كل ما يلبسه الحمار . أما هو ... أما أبو بكر محمد بن عمار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب ، إن اختل نظام واحدة منها وضحت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها ، وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة يكاد شعره أن يلقى بها . دخل ابن عمار شلباً لا يقصد فيها إلى أحد ؛ فلقد ربى وشب فى قرية من أعمالها ، وإن كان قد تلقى علومه فى شلب على « ابن الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » إلا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يعرفهم ابن عمار من الأساتذة ، والباقى منهم لا يجرؤ ابن عمار أن يقصد إليه ليطلب ؛ فجميعهم فقير . فلم يبق أمام ابن عمار إلا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع حماره الذى أضناه .

سار ابن عمار يتلفت فى ذلة الجائع وفى عزة الشاعر ، فلا يجد وسيلة إلى أحد ممن يرى ، وكان الناس ينظرون إليه على حماره هذا

الهزيل ، فتبدو على وجوه بعضهم الشفقة والإشفاق على هذا الهزال المركب ، وتبدو على وجوه أخرى السخرية من تلك الأثمال التى تكاد تلتئم جنباتها جميعاً من شدة هزال صاحبها ، والتى كانت تبدو وكأن أحداً لا يلبسها ، وإنما هى منتصبة بقدرة معجزة ، وكانت السخرية تتضح وتستبين حين تنصب عين الساخر على الحمار المضنى من كثرة المشى ، لا من الحمل الذى يحمل ، فهو لا يحمل شيئاً ...

ولكن ابن عمار كان مشغولا عن هذا كله بجوعه وجوع حماره الذى تركه يسير ، لم يوجهه وجهة معينة ، بل ترك له حق القيادة ، والحمار لا يعرف طريقاً إلى بيت ، ولا سبيلا إلى مرتع ، وإنما هو يرى طريقا فيسير ، ولقد يعوج الطريق أو يعتدل فيعوج معه ويعتدل ، حتى إذا وجد طريقين عليه أن يختار بينهما ، اختار دون أن يكون لعقله وازع فى هذا الاختيار ، فهو حمار يسير لا يدرى لماذا يسير ، ولا أين الطريق ... وطال الأمر على ابن عمار والحمار ، فالطريق طويل على من لا يعرف مقصداً ، ولقد مالت الشمس لغروب وكادت أن تغيب ، وكاد أن يغرب معها أمل ابن عمار الأخير الذى تضاءل حتى أصبح حفنة من غلال .

وفجأة أشرق سوق الغلال فى عين ابن عمار ، فوقف الحمار من تلقاء نفسه على مبعدة قريبة من السوق ، وأخذ ابن عمار يفكر فى وسيلة ينال بها أمله الأخير هذا ... أيسأل تاجراً أن ينسئه حفنة غلال

يرد له ثمنها عند ميسرة ، ولكن ما الذى يدعو التاجر إلى ائتمانه وهو لا يعرفه ، وهل هو نفسه يأتمن نفسه ؟ وأين هى تلك الميسرة التى يريد أن يرد فيها الثمن ؟... لا ... لا فائدة من النسيئة ... أيستجدى التاجر ؟...لا ، ودون هذا موته وموت الحمار جميعاً ... فكر ابن عمار فأطال التفكير ثم وثب إلى ذهنه خاطر ... أخذ يقلبه على أوجهه ... لماذا لا يمدح هذا التاجر بشىء من الشعر !... نعم إنه لم يمدح غير الملوك والسراة من القوم ، ولكن ما البأس فى أن يمدح هذا التاجر ، لقد كان يمدح الملوك والسراة ليصيب منهم مالا يشترى به غلالا ... لقد كان الملوك والسراة طريقاً له إلى هذا التاجر وأمثاله ... وقد مدح هو الطريق ليصل إلى المقصد ، فماله لا يمدح المقصد بعد أن خذله الطريق ؟ ولكن أيفهم التاجر الشعر ؟ وحينئذ ضحك ابن عمار فى نفسه ، فأغرقت نفسه فى الضحك ... وهل فهم الملوك والسراة جميعهم الشعر ؟ ... سوف يمدح التاجر فإنه بهذا ينال ما يصبو إليه ، إنه بهذا سيدخل إلى نفس هذا التاجر فرحاً لم يتوقعه فى يوم من الأيام . وعزم ابن عمار وبدأ فى التنفيذ ، وأخرج من جيبه قرطاساً وخط عليه فى سرعة بضعة أبيات ، ثم هم أن يدع ظهر الحمار ويسعى إلى التاجر ، ولكنه عاد إلى نفسه وخجل أن يفعل ؛ فهو لم يعوّد وقفه فى السوق ، وهو لم يعود أن يرى ممدوحه معه على الأرض ، بل يراه دائماً على ذروة عرشه .. فكر ابن عمار فى وسيلة

يبلغ بها قرطاسه إلى التاجر . وبينما هوحائر ، مر به غلام استوقفه ابن عمار وطلب إليه أن يبلغ ورقته وفيها شعره إلى التاجر الذى استوجهه ابن عمار . وكان الغلام طيعاً فأخذ الورقة وقصد بها إلى التاجر ، فأخذها وألقى إليها نظرة كانت كافية لأن يغمر السرور وجهه . فلقد أصبح ممدوحاً يقال فيه الشعر ويرجى لديه النوال ، ولم يفهم التاجر من الشعر شيئاً غير أنه شعر ، وغير أن هذا الشعر لا يمدح به غير الملوك والسراة .. ولما كان التاجر واثقاً أنه ليس ملكاً فلا بد إذن أن يكون من السراة . وهكذا أسرع إلى مخلاة لديه وأراد أن يملأها براً[1] ولكن غريزة التاجر فيه ردت يده فى سرعة ، وألقت بها إلى الشعير فملأ المخلاة منه وأعطاه إلى الغلام . ثم التفت إلى غلاله يجمعها ، يريد أن يبلغ بيته فيفهم زوجه التى لا تنى عن إيذائه أنه أصبح ممدوحاً وأنه من السراة .

وانكفأ الغلام إلى ابن عمار يحمل إليه المخلاة بحملها الجديد ، ففرح ابن عمار ورأى فى هذه المخلاة آماله قد تحققت ، بل إن آمال حماره أيضا قد تحققت معه ، ولم يبق له إلا أن يفكر فى مثل هذه الآمال لغده الذى ينتظره ، والذى يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس ، ومثل ما يفعل اليوم ، ومثل ما تفعل كل إخوان هذا الغد من ذاهب وحاضر فى ابن عمار . فويل لابن عمار من غده .. أو ويل للغد من ابن عمار .

---

(١) البر (بضم الباء) : القمح .

٢ ـ عهد الملوك

لم يمكث ابن عمار في شلب ، فقد أصبحت في عينيه مثل سائر البلدان التي مر بها في تطوافه ، وإن تكن في نفسه مهد طفولة ومدرج صبى ومعهد ذكريات .

كان لابد لابن عمار أن يأكل ، وكان لابد لحماره أن يأكل معه ، ولم يكن في مقدور ابن عمار أن يقصر شعره على التجار ، وما كل تاجر مثل ذلك الرجل الكريم الذى وصله ، وإن تكن آمال ابن عمار تضاءلت ، إلا أنها في البعيد البعيد من نفسه ما زالت ، وهي هي وما زالت تلقي به إلى كل متجه يرجى فيه خير .

وكانت الأندلس في ذلك الحين مقسمة إلى دويلات على كل منها حاكم ، وقد أصر هؤلاء الحكام أن يسموا دويلاتهم ممالك حتى يتسنى لهم أن يسموا أنفسهم ملوكاً . ولقد كثر بينهم التنازع ، ولكنهم لم يتنازعوا في هذه التسمية قط ، فقد اعترف كل منهم للآخر بها ، حتى يضمن اعتراف هذا الآخر لنفسه . ولكن التاريخ

أبى أن يعترف باعترافاتهم هذه ، ولم يقبل أن يطلق عليهم ملوكاً ، ثم يسكت عنهم ، وإنما أطلق عليهم اسم « ملوك الطوائف » . فكانت هذه التسمية من التاريخ دليلا على أن هذا التاريخ قد يصدق فى بعض الأحايين .

كان بنو عباد هم أقوى أسرة حكمت فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء ، وقد كانت إشبيلية هى مقر حكمهم ، وقد تحدر المُلك فى بنى عباد حتى وصل إلى « أبى عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد » . وقد ولى الحكم بعد أبيه وأطلق على نفسه اسم « المعتضد » ، وكان أبوه القاضى أبوالقاسم محمد بن إسماعيل من خيرة الملوك الذين حكموا فى هذا الزمان . وقد سار المعتضد فى طريق أبيه قليلا ، فكان يستشير ويعدل ، ثم مال عن هذا الطريق فاستبد بالحكم وحده ، ولم يكن عهده كله شراً ، فإن التاريخ ليقول عنه كثيراً من الخير ، ولكنه كان سفاكاً باطشاً ، ولعل النقائض لم تجتمع فى شخص كما تجمعت فى المعتضد ، فهو قاس غليظ القلب ، ولكنه فى مجالسه رقيق الحاشية ، حسن الذوق ، شاعر محب للشعر ، وقد كان مستمعاً للشعر خيراً منه ناظماً له .

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشعر ، فشد إليه الحمار ، عساه أن يجد لنفسه متسعاً فى الزحام . ووقف ابن عمار إلى المعتضد ، وقد جلس إلى جانبه ابنه « المعتمد » وقد كان من أحسن شعراء

عصره .. وقف ابن عمار وألقى قصيدته التى أضنى ذهنه فى إعدادها ؛ فقد كان يعلم أن آمال المستقبل أجمع رهينة بأبياته هذه .

قال ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرَى

والصبح قد أهدى لنا كافورةً لما استردّ الليل منا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زها بورد رياضه حجلا ، وتاه بآسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه ريح الصبا فتخاله سيفَ ابن عباد يبدد عسكرا

عبادٌ المخضر نائلُ كفه والجو قد لبس الرداء الأغْبرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد ، والحسام مجوهرا

قداح زند المجد ، لا ينفك عن نار الوغى إلا إلى نار القرى[1]

لا خلق أفرى من شفار حسامه إن كنت شبهت المواكب أسطرا

أيقنت أنى من ذراه بجنة لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن ربعى مخصبٌ لما سألت به الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبال إذا احتبى من لا تسابقه الرياح إذا جرى

---

(١) ما يقدمه المضيف لضيفه .

ماض وكف الرمح يكهم ، والظبا تنبو ، وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً عضباً ، وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خَلقه أو خُلقه كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته فرأيته فى بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه وجنت به روض السرور منورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يأيها الملك الذى حاز المنى وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من منالك راجيا نيلا ، وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسمت بربرا[١]
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم لما علمت الحسن يلبس أحمرا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك صندل أوردته من نار فكرى مجمرا

---

(١) كانت هذه القصيدة على أثر وقعة انتصر فيها المعتضد على البربر ..

فلئن وجدت نسيم حمدى عاطراً فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
وإليكها كالروض زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا

وإن فى هذه القصيدة أبياتاً تظهر فى جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال : فالرمح على سنانه الرأس هو - فى رأى ابن عمار - غصن مثمر ، والسيف خضبه الدم هو الحسن الذى يلبس أحمر . ولعل ابن عمار قصد إلى اجتماع القسوة والجمال فى نفس المعتضد ، أو لعله لم يقصد .. ولعله حينما أمات ضميره ومدح ، جاءت هذه الأبيات فى زحمة المديح ، ورأى نفسه يمدح شخصاً لأنه قتل ، فأراد أن يعتذر عما فعل ، ويعتذر للممدوح عما قتل . فكانت هذه الأبيات .. لعله ، ولعله لم .. أيا يكون الأمر فقد ألقى ابن عمار قصيدته ، ثم خرج من الديوان لينتظر ما قد يجود به عليه المعتضد ، ولقد انتظر ابن عمار فطال به الانتظار ، حتى رأى بقاءه بعد هذا عبثاً لا طائل تحته ، وحاول أن يصبر نفسه ، ولكنه أحس أن آماله فى جائزة خيال ، فقام من جلسته وفى نفسه حسرة لاعجة ، فقد كان كل مناه أن يقيم بهذا الرحاب غير نازح ، ها هو ذا يخرج منه حتى بغير الجائزة التى كان ينالها من الملوك الذين لا يفهمون الشعر ولا يقدرونه .. لقد علق مناه بقصيدته ، وكم يخذل الشعر أصحابه .. ليخرج إذن من القصر فلا يقيم .. بل ليخرج من غير جائزة ، وحسبه أنه خرج سالماً إن كان فى السلامة مع التشرد احتساب لمحتسب .. خرج ابن عمار إلى حماره

الذى تركه خارج القصر ، وسار إلى حيث ترك الحمار ، ولكن يا للمصيبة النازلة ! ! لم يكن الحمار هناك . بحث ابن عمار حول القصر ، وأطال البحث فلم يهتد إلى حماره الأثير ، فجلس على سور القصر وفى نفسه ألم وحسرة ، وأخذ يفكر فى حماره الذاهب .. لقد صحبه منذ سنين ، ولقد رأى معه مر الحياة وحلوها .. وماذا ؟! .. حلوها ؟.. أين حلو الحياة هذا الذى ذاقه معه الحمار .. إنه لم يعرفه .. لا بأس ، لقد كان إذن حماراً صبوراً احتمل مر الحياة وحده فلم يطالب بحلوها .. ولكن أكان يستطيع أن يطالب ؟ لقد كان صامتاً لأنه مرغم على الصمت . ثم من أين يدرى أنه سرق الآن ؟ لعله هو الذى هرب وحده دون سارق . إنه هو هذا الخائن ، لم تكد بارقة أمل تلوح له فى هذه المدينة الضخمة حتى ترك صاحبه أحوج ما يكون إليه ليبحث عن صاحب آخر ..لم يكن وفياً ذلك الحمار .. ولعله أيضاً كان نحسا على صاحبه ، فإن خيراً ما لم يصب ابن عمار وهو راكبه .. أكان نحساً حقاً يابن عمار ؟ أم أنك تصبر نفسك على ما أصابها ؟ فكر ابن عمار فأطال التفكير ، وقد انتهى إلى أن هذا الحمار كان نحساً عليه ، فمس قلبه طيف من الراحة لم تتركه نفسه دون أن تفسده عليه ، فحادثت صاحبها هازئة : « أكان الحمار نحساً أيها الشاعر ؟ فانظر إذن أى خير سيصيبك من بعد ذهابه .. لم تعد لك حجة فى فقرك أيها الشاعر إن كان الحمار هو حجتك » فغضب ابن عمار من

نفسه هذه المتشائمة ، وهب يريد أن يسير ، وهم أن يبحث عما يركب ، ولكنه تذكر أن حماره قد سرق ، فعلم أن نفسه على حق فى سخريتها ، وامتطى قدميه وهم بمسير .. لم يكد ابن عمار يخطو متباعداً عن القصر حتى لحقه من ينادى به ، فكذب أذنيه أول أمره ، ولكن النداء ألح ، فالتفت إلى من ينادى ، فإذا هو خادم من القصر يسعى إليه ، فانبثق فى نفسه وامض أمل غشيته سحابة خوف ، ولكن صوت الخادم ما لبث أن علا طاغياً على هواجس نفسه ، طالباً إليه أن يعود معه إلى القصر .

ورجع ابن عمار إلى القصر الذى ترك فيه رماد أمل ضخم من آماله ، ولكن ما لبث هناك أن رأى هذا الرماد من الأمل قد تجسم ، فصار الأمل حقيقة واقعة يكاد لا يصدقها لطول عهده بالآمال المحترقة ، ولا يستطيع أن يكذبها ؛ لأنها قائمة أمامه وهو يقظان غير نائم ، وهو مفيق غير مخمور بغير هذه النشوة التى انسابت فى إحساسه لأول مرة فى حياته ... لقد تحقق أمل . أمر المعتضد أن يكافأ ابن عمار ، فتجزل له المكافأة ، وأمر له بملبس فخم وبمركب فاخر ، جعل ابن عمار يلعن حماره وأيامه النكدة ، وكل هذه الأعطيات لا تساوى شيئاً فى نظر ابن عمار إذا قاسها بالأمر الأخير الذى قضى بأن يكتب اسمه ضمن شعراء القصر .

أصبح ابن عمار إذن من شعراء القصر ... لقد آن للشريد فى أقطار الأرض أن يراح إلى ملجأ ، وأن يهدأ إلى مستقر .. يتلقى ابن عمار ذلك الخبر ، ويهم بأن يذهب إلى الحجرة التى خصصت به ، ولكن خادماً يأتى إليه ويخبره أن مولاه المعتمد يطلبه فيجف قلبه ! وكيف لا ؟ ؟ المعتمد شاعر رقيق غزل ، لم يقل الشعر فى يوم تكلفاً ولم يقله محتاجاً ، وإنما أحسه فقاله ، وابن عمار لم يقل الشعر إلا صناعة ... وكيف لا ؟ وهو قد تلقى هذا الخير جميعه ، ولا بد لشر أن يلحق بالخير ، ولا بد للمعتمد أن ينتقد ، ونقد الأمير شتيمة قد تصل إلى ماهو أدهى .

يذهب ابن عمار إلى حيث يدله الخادم ، فإذا هو يجد ثلة من القوم ليس بينهم من هو أفضل من الآخر ، وقد افترشوا جميعاً وسائد على الأرض ، ويبحث بينهم عن المعتمد الذى رآه فى مجلس أبيه فلا يجده ، فيتلفت إلى الخادم يسأله عن المعتمد ، ولكن الخادم كان قد انصرف ، فيعيد وجهه إلى القوم فإذا هم مشرئبون إليه ، وإذا واحد منهم كان قد رآه حين أنشد قصيدته يقوم إليه ، ويقدمه إلى الجالسين ، ويفهمهم أنه أصبح منهم . فيعلم ابن عمار أن هؤلاء هم شعراء القصر فلا يحتشم منهم شيئاً ، فقد كان يعلم أنه خير منهم صناعة ، وأنه أكبر منهم نفسا . يجلس إليهم فيقولون ويقول ، ويسمرون فيسمر ، فإذا هو أكثرهم دعابة ، وإذا دعاباته تنطلق على طبيعة مواتية لا أثر فيها للكلفة ، فقد رأى كثيراً وتعلم .. ولقد اختلط بأقوام كثيرين ، وعلم

أن المرح هو خير عون له بعد الشعر ، وعرف أيضاً أن هذا المرح إن شابه تكلف أو صناعة أصبح ثقلا لا يتحمله أحد ، وكان من حسن طالعه أن روحه كانت صافية بطبيعتها ، فهو ينطلق على سجيته ، فيجد الجالسين يميلون إليه بحديثهم ، ويؤثرونه بالتفاتهم ، وإذا هو روح المجلس المنطلقة الجميلة ..

وبينا ابن عمار منطلق فى دعاباته ، إذا بالمجلس قد غشيه الوقار فجأة ، وإذا بالمنطرحين إلى الأرض قد نفروا جميعاً وقوفاً ، فيعجب ابن عمار عجباً يقطعه صوت جديد عليه يلقى السلام إلى من بالحجرة ، ويلتفت ابن عمار فيجد المعتمد داخلا إليهم من باب لم يكن ظاهراً ، فيرى ابن عمار تلك الأبواب السرية التى كان يسمع عنها ، وإن كان لم ير داعياً لهذا التخفى الذى اتخذه المعتمد وهو يدخل إليهم ... يدخل المعتمد وعينه على ابن عمار ، ثم هو يطلب من الشعراء أن يتخذوا مجالسهم ، فيتخذوها متوقرين ، ويلتئم الجمع حول المعتمد ، فيلتفت إلى ابن عمار ويقول له :

ــ هيه يا ابن عمار ، لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئاً ... أتمشى أيها الرجل قبل أن تنال جائزتك ؟

فيقص ابن عمار على المعتمد كل ما لاقاه فى يومه هذا من آمال خابت وحمار سرق ، ثم يكمل القصة بهذا الخير الذى سكب عليه ... وكان ابن عمار يقص فى انطلاقة لم يعهدها المعتمد فيمن يحادثه ، وفى مرح طرب له المجلس وعلى رأسه المعتمد ... وابن عمار جذلان بما

يلاقى كلامه من استحسان ، يشجعه على المضى فى حديثه علمه أن الأمير يشتهى دائما أن يسمع الحديث عبيطاً لا أثر فيه لتنميق ، لكثرة ما يسمع من التنميق ، ويشجعه من قبل ذلك الضحك الذى يستقبل به ، وهكذا عرف ابن عمار كيف ينفذ إلى المعتمد فيصل إلى نفسه من الطريق القريب ، وهو طريق الطبيعة العارية التى لا تحب التعمل ولا التكلف ، وهو الطريق الذى عمى عنه كل من صاحب المعتمد من قبل ، فإن أقرب الطرق دائماً هى أبعدها عن الذهن المحدود .

سر المعتمد بالشاعر الجديد ، وقربه إلى مجلسه ، ثم حادثه عن قصيدته التى ألقاها فى أول الليل فإذا هو معجب بها ، فيجيب ابن عمار :

ــ وأين هذا يا مولاى من قصيدتك التى تقول فيها :

واصبر فإنك من قوم أولى جلد ... ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مردّ لما يأتى به القدر
وإن تكن كبوة فى الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر
كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة ... وعبرة من شئون العين تنحدر
واصبر فإنك من قوم أولى جلد ... إذا أصابتهمُ مكروهة صبروا
لم أوت من زمنى شيئا أسر به ... فلست أعهد ما كأس وما وتر
ولا تملكنى دل ولا خفر ... ولا سبى خلدى غنج ولا حور
رضاك راحة نفسى ــ لا فجعت به ... فهو العتاد الذى للدهر أدخر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة ... لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر

قال ابن عمار هذه الأبيات وهو يترنم بها ترنم المعجب المخمور بما ينشد ، والمعتمد يستمع وعلى وجهه تتوالى موجات من السخط والرضى ، فليس يدرى أيها أولى بالظهور ، وأيها أدعى إلى الاستخفاء ، حتى إذا انتهى ابن عمار من الأبيات التى يحفظها تغلب السخط على الرضى فى نفس المعتمد ، وإن السخط لغالب دائماً فى نفس الملوك ... انتفض المعتمد صارخاً :

ـ أتذكرنى بموقعة هزمت فيها وباعتذار عن خذلان !؟ لبئس ما اخترت لى يا ابن عمار ، ولبئس ما شاء لك حظك .

ـ بل نعم ما اخترت لك ، ونعم ما اختار لى حظى أيها الشاعر .. أنا لا أعرفك فى موقعة وأنا لا أعرفك أميراً ، وإنما أنا أعرف فيك الشاعر الرقيق ، وأعرف فيك المعتمد بمجده الذى أنشأه هو بقلمه لا بمجده الذى أنشأه له أبوه وأجداده .

وفكر المعتمد قليلا ، ثم هز رأسه وقد أعجبه الكلام ، فكل جديد جميل . وقال لابن عمار :

ـ بل ليس بعد يا مولاى ، فإن لى مأخذا على شعرك هذا الذى ذكرت .

وبهت المعتمد ، فهو لم يسمع كلمة المأخذ هذه لاحقة بكلام يقوله أبداً ، ولكن ابن عمار لم يحفل دهشة المعتمد وأكمل ما يقول :

ـ لقد قلت فى بيتك الثانى : وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... إنك لتخاطب أباك فى قصيدتك تعتذر له عن هزيمتك ، وأنا لا

أظن أن أباك بكى ، بل لو كان بكى لكان عليك أنت أن تكتم الأمر فلا تبن عنه ، أما أن تقوله شعراً فهذا ما لا أرضاه لك شاعراً أبداً .

سمع المعتمد الحديث ووعاه وأصابته وخزة النقد ، ولكنه وجد لها مساً رقيقاً حلواً لم يعهده من قبل في المديح الذى يسمع ، لقدأحس صدقاً في حديث ابن عمار وهو لم يعهد الصدق فى كل من يخاطبونه ، بل كان يشعر بفراغ ضخم من الناس ، فقد كانوا جميعاً يتملقونه ؛ فهم في عينه لا يملأون الفراغ الذى أتاحه الله لهم فى الدنيا ... بل إنهم يزيدون هذا الفراغ فراغاً ... سمع المعتمد وفرح بما يسمع ، ثم هب في الجالسين :

ـ أسمعتم أيها الشعراء ... إن فى العالم صدقاً ... لقد مكثتم السنين تستمعون وتعجبون ، ألم أقل شيئاً ينتقد في يوم من الأيام ؟ ومن أنا أيها الشعراء ؟ أكنت الله يرسله تنزيلا ولكن صدقاً انبثق فى القصر ... فأهلا ... أهلا بالصديق الذى طال عنه البحث .

مال المعتمد إلى ابن عمار يذاكره شعره ، وابن عمار يمدح فى تحفظ وينقد فى أدب ووضوح . وحين يجد المعتمد معجباً بنفسه يشجعه على إعجابه ، فهو يلاينه ويشعره أنه يقسو عليه ، وهو يمدحه ويجعله يحس أنه ينقده ... حتى انتهى الليل ودارت الرؤوس تهفو إلى النوم ، فانفض السامر وافترق الشاعران الصديقان وقد اعتزما لقاء فى يومهما التالى ، بل لقد اعتزما لقاء فى كل أيامهما التالية ... فهلمى أيتها الأيام ، وأرينا ما الذى تخفينه لصداقة جديدة وعهد جديد .

٣ ـ عهد جديد

انصرف ابن عمار إلى غرفته معجباً بنفسه ، فقد سارت الخطة في الطريق الذى رسمه لها ، ولقد ظفربالمعتمد وقد عرف من أين يذهب إليه ، وقد لاقاه وأمسى ــ أو هو أصبح ــ وقد حقق لنفسه من الأمنيات ما ظن أنه لن يتحقق في يوم من الأيام ، فلقد أصبح شاعر الملك المعتضد ، وقد أصبح قريباً إلى نفس المعتمد ولى العهد الشاعر الذى يحب الشعراء . ويفكر ابن عمار فيما كان بينه وبين المعتمد حين أفهمه أنه ينقده وأنه مخلص له ... فكر ابن عمار فى هذه الخطة التى رسمها لنفسه يوم كان فقيراً ، ويوم كانت آماله تصبو إلى يومه هذا ... فقد كان حينذاك يفكر فيما يلقاه هؤلاء الأمراء من تزلف وتمليق ، وكان يفكر فى غباء هؤلاء المتملقين المتزلفين كيف يفوت عليهم أن الأذكياء من الأمراء يضيقون أحياناً بكثرة المديح ، كما يضيقون من كثرة النقد ... وكان يفكر كيف يجب أن يضع المتقربون إلى الأمراء مدحهم فى قالب من النقد حتى يخيل للأمراء أنهم يستمعون إلى

صادق ... إنه لم ينقد المعتمد اعتباطاً ، ولم تكن سرعة خاطر ولا حدة بادرة ، وإنما هى خطة نظمها فى نفسه منذ آماد بعيدة غاية فى البعد ، ورأى الفرصة أمامه فاهتبلها ، ولقد نجحت الخطة ، وقفز وثباً إلى الهدف الذى تقطعت أنفاس الكثيرين ممن يحيطون بالمعتمد ليصلوا إليه فما بلغوا مما بلغ ابن عمار شيئاً .

وأغفى ابن عمار يؤرقه شوقه إلى الغد ، بعد أن كان يؤرقه خوفه من هذا الغد ... وهكذا ذاق حلو الحياة ابن عمار حليف البؤس وأخو الطريق .

حتى إذا أقبل الصبح وكاد أن يغدو ظهراً ، دلف إلى حجرة ابن عمار خادم من القصر يوقظه ، وما أسرع ما تيقظ وما أجمل ما سمع ... فقد جاء الخادم يدعوه إلى المعتمد .

ووضع ابن عمار على نفسه تلك الحلة الجديدة التى أنعم عليه بها المعتمد فى ليلته الذهبية ، ثم نظر إلى المرآة فوجد شيئاً ، ولم يكن قد نظر إلى المرآة منذ كان طفلا ، وما كان بحاجة لينظر إليها ، وما كانت حاجته إلى هذه النظرة ! ! أما وجهه فهو يعلمه ، وأما الأسمال التى كانت عليه فهو ضيق بها يريد أن تغرب عن وجهه ، فهو يدعو اللّه أن يعفيه منها أو يعفيها منه ... أما اليوم فهو ينظر إلى المرآة ويجد شيئاً ... يجد إنساناً فى وجهه حمرة من أثر الفرح ، وفى عينيه حمرة من أثر السهر ، وفى ملبسه فخامة من عند الملك .

سعى ابن عمار إلى المعتمد ومكثا معاً وتحدثا ، وكانا كلما فعلا اقترب ابن عمار إلى نفس المعتمد ، فهو يقص عليه ما رأى وما سمع ، ويقص عليه ما أصابه به الدهر ، حتى إذا أحس ابن عمار نفسه وكأنه يكلم شخصاً يعرفه منذ زمن بعيد تجرأ فسأل المعتمد عن دخوله في الأمس من باب سرى ، وأوشك أن يأخذ هذا على المعتمد ، ولكنه لم يكد فإن المعتمد أسكته وطلب إلى أن ينتظر حتى يقبل المساء .

وأقبل المساء والأمير والشاعر متلازمان ، وسأل ابن عمار الأمير أن يجيب عن سؤاله الذى أبداه فى صدر النهار ، فإذا الأمير يقف ويأخذ بيد ابن عمار إلى حجرة ليس بها من شيء غريب ، فهى حجرة ذات باب ، وبها بعض الستائر تزين جدرانها ، ولكن الأمير يزيح ستارا منها ، فيرى ابن عمار من خلفه ثقبا فى الحائط ، ويسأل الأمير عنه فيطلب إليه الأمير أن ينظر من الثقب فيفعل ، فيرى مجلس الشعراء الذى كان فيه بالأمس وقد التأم لا ينقصه غير نفسه وغير المعتمد ... ويستوضح الأمير فيخبره أنه يريد أن يرى الشعراء وهم جالسون فى الغرفة الأخرى دون أن يحسوا به ، فيتاح له أن يراهم فى مباذلهم من غير هذه الكلفة التى يصطنعونها فى مجلسه ، فلقد ضاق بهم أمام الأمير ، وأراد أن يراهم أمام أنفسهم . فيسأل ابن عمار :

ـ فإذا مسك أحدهم بما لا تحب ؟

ـ إن أحداً منهم لا يجرؤ فكلهم عين على كلهم ، وهم يخشون على أنفسهم من أنفسهم .

ـ فلماذا أريتنى هذه الحجرة ؟

ـ لأننى أحسست فيك الصدق ، ولقد رأيتك بالأمس من هذا الثقب وأنت لا تعلم ، ثم رأيتك تتكلم أمامى فما رأيت اختلافاً بين الحديث والحديث ، بل رأيتك فى كل مجالسك تطلق نفسك على سجيتها ، فهذا الثقب لا أحتاج إليه معك .

ـ والباب لماذا جعلته مختفياً ؟

ـ حتى لا يحاول واحد منهم فتحه ليعرف أن وراءه حجرة ... إنهم يظنون حين أدخل منه أنه مفض إلى دهليز من دهاليز القصر .

وهكذا تكشفت الحقيقة لابن عمار ، وهى فى تكشفها جعلته يحس أنه صار أقرب الناس إلى المعتمد ، ويفتح المعتمد الباب المختفى ويمضى إلى المجلس ومن خلفه ابن عمار .

ويرى الجالسون ابن عمار مصاحباً للأمير فتشتعل نفوسهم غيرة ، ولكن النار التى بقلوبهم ما تلبث أن تنقلب تملقاً لابن عمار وتوسعاً له فى المجلس وفى الحديث ؛ فقد صار القريب إلى المعتمد .. وناهيك بقريب إلى المعتمد .

ومرت الأيام فكان الشاعر يلازم الأمير لا يفارقه ، بل إن الأمير لم يعد يطيق أن يفارق الشاعر لحظة من حياته ، فهو معه طول يومه وليله

لا يفارقه إلا لهجعة فى أصيل ، أو نومة فى مساء .. بل لعله كان يلازمه عند الأصيل أيضاً ، ويكتفى المعتمد بضجعة يتخذها ويبيح للشاعر أن يتخذ لنفسه الجلسة التى يريدها .. ومرت الأيام سريعة على المعتمد بصداقته الجديدة بعد أن كانت بطيئة ثقيلة لا يحس لها جمالا ولا رواء ، وهى إن كانت تسرع على المعتمد فهى تومض ومضاً لابن عمار ، لا يكاد يحسب أنها أيام مثل تلك الأيام التى مرت به وبحماره ، حتى لقد كان يخيل إليه أن الدهر قد تغير ، فأصبح يلد أياماً جديدة لا صلة لها بتلك الأيام البائسة النكدة التى قاساها .

وانقطع المعتمد عن مجلس أبيه ، وفرغ لابن عمار فى الصباح ثم لشعرائه جميعاً منذ صدر الليل حتى يشارف نهايته ، وهو يخلو بعدئذ إلى ابن عمار . وهكذا .. حتى لم يصبح له لحظة يخلو فيها لأبيه أو لمجلسه ، وأحس الوالد بانقطاعه هذا ، وقد كان يعلم أن ابنه شاعر ، وقد كان يعلم أنه يحب الشعراء ويهفو لمجلسهم ، ولكنه مع هذا كان يراه خالياً إليه حيناً ، وإلى مجلسه أحياناً ، فأحس الوالد أن ثمة جديدة فى حياة ابنه استقصاها فعرف أنها ابن عمار ، وأنه قد زاد على الشعراء ، فالتهم وقت ابنه الذى كان يبقيه له هؤلاء الشعراء ، وما كان المعتضد ليسكت عن هذا فهو يحب الشعر ويحب المجلس المرفه ، ولكنه يحب ملكه أولا وهو يخشى أن يصر المعتمد على شعره وشعرائه ، فلا يصبح الملك الذى يرجوه الغد ويرنو له العرش .

لم يسكت الملك عن هذا الأمر ، ولكنه خشى أن يلوى ابنه فى عنف ، أو يزجره فى قسوة ، فينفلت الزمام من يده ، فهو يعلم أن ابنه ذو روح شاعرة طليقة لا تطيق القيد ولا ترضاه ، حتى ولو كان هذا القيد ملكاً ، فهو يدعو ابنه ويبصره فى روية ، ويسايره فى الحديث والرأى أول الأمر ليصل به إلى رأيه الذى يريده له فى آخر الأمر ، فهو يقول عن نفسه إنه شاعر ، وإنه يحب الشعراء ويقربهم وإنه ليترسل مع ولده فى الحديث حتى ينتهى به إلى تلك الأبيات التى قالها فى صدر شبابه :

قسمت زمانى بين كد وراحة فللرأى أسحار وللطيب آصال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً من الناس منطق يروق .. بدا منى مقال وأفعال

وإن المعتضد ليطلب إلى ابنه أن يقسم زمانه بين شعر وإمارة ، ولكن المعتمد لا يقطع برأى ، بل يلف مع المقال ويدور فى طاعة من الحديث وعصيان عن الوعد ، والمعتضد ذكى يعلم ما يجول بخاطر ابنه ، ويعلم أنه يخشى من وعد يقطعه ثم لا يطيق أن ينفذه ، ويترامى الحديث ويطول ، فلكل إحراج من المعتضد مخرج عند المعتمد حتى إذا أحس المعتضد أنه مفض إلى إخفاق فيما يريد ، صارح ابنه أنه سيوليه إمارة شلب ، فيستهول الولد الخطب ويهم بأن يستقيل أباه ، فهو شاعر لا شأن له بالإمارة ، فإن تفض إليه فى غد له بعيد فهو سيصاب

بها مرغماً لأنه لا يطيق لها دفعاً ، أما أن يصاب بها وأبوه على قيد حياة وهو بعد ما يزال غارقاً فى الشعر وابن عمار ، ودون أن يرى داعياً لتلك الإصابة فهذا مالا يطيق ، ويقرأ المعتضد هذه المعانى على وجه ابنه وفى عينيه فيشير إلى ابنه أن يسكت قبل أن ينطق ، ثم يبدأ فى حديث آخر نابع من القلب :

ـ وبعد .. يا بنى ، أتعين الدهر علىّ فلقد أصابنى بأخيك الأكبر أرغب ما يكون فى الخلافة وأعجل ما يكون إليها ، حتى لقد هم بقتلى ليعتسفها منى قبل أن يتيحها له موتى .. وقتلته ، وقتلت به شطراً من نفسى وجانباً كان فى حياتى إشراقاً حين ميلاده ، فإذا هو السواد الحالك .

ثم صرت أنت الأكبر والأمل ، فإذا أنت أزهد ما تكون فى الخلافة وأقعد ما تكون عنها ، فلا والله لن يصاب ملك فى ملكه وأولاده كما أصاب ، فبالله إلا أعنتنى على الدهر وأعيذك أن تكون عوناً له .

واغرورقت عينا المعتضد بالدمع وهمت أن تفيض به ، لولا أن أمسكه عزة الملك وقبول الابن .

٤ ــ صداقة وحب

شلب إذن هى الإمارة التى اختارها المعتضد لابنه المعتمد .. بلد ابن عمار ، ومهبط رأسه ، ومكان تعلمه ، ومغنى شبابه ، ومصدر فقره ، وأيام شقائه ، لقد علم ابن عمار أن المعتمد راحل إلى شلب ليكون بها أميرا .. وهو يعلم أن المعتمد لم يعد يطيق الحياة من غيره ، فهو إذن راحل مع المعتمد وما أطيب هذا .. سوف يدخل شلباً هذه المرة وهو الصديق الأول لأميرها ، ومن يعلم أى غد ينتظره هناك فقد أصبح الغد ينتظره دائماً بالخير .

وسافر المعتمد إلى شلب ، وسافر فى صحبته ابن عمار ، وأقبل المعتمد على إمارته كارهاً . وحاول أن يصرف أمورها ، ولكن أى أمور تلك التى يراد به أن يراودها ؟ إنه شاعر ، لماذا لا يريدون أن يفهموا هذا ؟.. إنه شاعر يحب شعره ، أما الإمارة فإنها مشقة سوف يتحملها فى حينها .. إن أحداً لا يريد أن يفهم عنه هذا إلا صديقه الأثير ابن عمار .. هو وحده الذى يعلم ما يعتمل بنفسه .. وهكذا

يقبل المعتمد على شئون الإمارة إقبالا خيراً منه الإحجام ، فما يكاد يقطع فى أمر حتى يهرع إلى ابن عمار ويتناشدان ، ثم هو يضيق بتلك الفترة الوجيزة التى يبت فيها فى أمور الحكم ، فهو يطلب إلى ابن عمار أن يجلس معه حين تعرض عليه الأمور فيفعل ابن عمار متثاقلا أو مظهراً للتثاقل ، مخفيا للرغبة العنيفة فى هذه الجلسة ، متحرقاً شوقاً إليها فى بعيد نفسه .. ويجلس ابن عمار وتعرض الأمور فيسكت بعض الحين ، ولكن المعتمد لا يريد أن يراه ساكناً ، فهو يلتفت إليه ليشركه فى الحديث إشراك المجاملة .. فما كان ليدرى عنه خبرة فى غير الشعر .. يلتفت المعتمد إلى ابن عمار يطلب منه رأياً عابراً فإذا ابن عمار ينبثق متفجراً ، وإذا هو ثاقب النظرة خبير بدقائق ما يقول .. فإنها بلدته وإنه ابن عمار ذلك الرجل الذى دار على قصور الملوك فرأى وفهم ما رأى ، ثم هو حليف الطريق الطويل ، فما أكثر ماخلا به وبحماره هذا الطريق ، فكان يفكر ويمحص ويتعمق الأمور حتى يبلغ أعماقها ، وهو يقرأ فيصل إلى أغوار ما يقرأ ، فما هو إذن بالشاعر الهاذر الذى يمد يده ليثنيها إلى فمه فلا يفكر فى غير مد وانثناء .. وما هو بالذى يغبى عن فهم الأمور الجلائل فقد عاصرها مشاهداً ، وإن تكن الحياة النكدة لم تتح له أن يعاصرها عنصراً فيها ، فها هو ذا المعتمد ينتقم له من تلك الحياة ويوسع لخبرته بالتفاتته تلك ، وها هو ذا يتدفق فى تبصر ويرشد فى خبرة ويهدى فى مران ، والمعتمد يستمع عاجباً معجبًا وقد وسع ما بين هدبيه ، فما دار له بخلد

أن ابن عمار يفهم شيئاً غير الشعر وغير تلك الأحاديث الطلية التى كان يترسل فيها ، ولكن ها هو ذا يتضح عن رجل مارس السياسة ومارسته ، فليكن صديق الشعر هو هو صديق السياسة وما أجمل أن يكون هذا الصديق الدائم ابن عمار !.

ولكن ابن عمار الذى سعى إلى صداقة المعتمد وإلى مجالس شعره ، لا يطيب له أن يشارك هذا المعتمد فى الإمارة ، وقد كان يعلم أن أبعاد المعتمد عن شئون الإمارة أمر ما أيسره ولكنه يتعجل ولا يطيق الانتظار أكثر مما انتظر .

لا يطول التفكير بابن عمار ؛ فهو يعلم أن المعتمد عازف عن شئون الإمارة ، وهو يعلم أنه يحب الشعر ومجالس النساء ، فما أسرع ما يعقد ابن عمار هذه المجالس ! وما أجمل ما ينضدها فيقبل عليها المعتمد لا يفيق ، ويتظاهر ابن عمار أنه مُقبل معه .. وتملأ هذه المجالس وقت المعتمد فهو يترك شئون الإمارة شيئاً فشيئاً لابن عمار حتى يستقل بها لا يشاركه فى ذلك المعتمد ، بل إن المعتمد ليغتبط بهذا التوفيق الذى هيأه اللّه له فى ابن عمار فجعل منه شاعراً فذاً ومنظماً عبقرياً للجلسات الممتعة ، ثم شاء تبارك وتعالى أن يتوج هذا كله بخبرة نابغة فى السياسة وشئون الحكم .

وتسير الحياة طيبة للصديقين .. فأما الأمير فيمرح مع الشعراء والحسان ، وأما الشاعر فيصرف شئون الإمارة وينظر فى كل شئونها ، كبر هذا الشأن أو صغر ، ولكنه مع هذا يفكر فى أمره وأمر

المعتمد فيجد نفسه هو السيد بغير لقب وبغير وظيفة رسمية ، فإن وظيفة شاعر الأمير لم تكن في يوم من الأيام منفذاً إلى شئون الحكم .. لابد إذن من وظيفة ، ولم لا وقد أصبح المعتمد خطرة منه ؟ ولم يكن من دأب ابن عمار أن يقف تفكيره عند التفكير أبداً ، بل إنه دائماً يتبع الفكر بعمل .

وجلس ابن عمار إلى المعتمد ، وامتلك ابن عمار عنان الحديث ودار به ولاب ، حتى انتهى إلى الإمارة فهو يذكر للمعتمد ما يشفى به فيها ، ثم هو يتكلم مترسلا مظهراً للمعتمد أنه لا يقصد إلى غير الترسل في الكلام فيعرض إلى المخالفات التي تقع من صغار الموظفين ، وكيف أنه لا يملك أن يردهم عنها ، ويفهم المعتمد مرمى الحديث وهدفه ، فلا يصبح الصباح إلا وابن عمار قد أصبح وزير المعتمد في إمارة شلب .

هكذا أصبح ابن عمار في بلدته .. بلدته تلك التي لفظته شاباً ، ثم أقفلت أبوابها دونه كلما حاول أن يلجأ إليها .. لقد صار فيها وزيراً .. وزيرها الذي يحمل وحده عبئها فلا يعرف أميرها من أمرها أمراً ، غير أن ابن عمار هو المتصرف فيها ..

هيه ابن عمار .. ما أحسب أيامك الخالية أتاحت لك أن تتخيل هذا الذي تمرح فيه اليوم من سعادة .. فهل تقف بك آمالك ابن عمار عند حد تنتهي إليه ، أم رأيت من الأيام ليناً فأنت توغل غير ناكص .. شأنك والأيام ابن عمار .. شأنك وإياها .

* * *

ظلت هكذا حياة الأمير ووزيره الشاعر ..ولم يكن المعتمد رغم ما هيأه له ابن عمار من حسان وشعراء ليستطيع أن يتخلى عن جلسات صديقه ، فهويتوق إليه منفرداً يتطارحان الشعر أو يجيزانه ، فإن ضاقا بالقصر وشلب خرجا متنكرين إلى إشبيلية يمرحان فيها ما وسعهما المرح ، وقد كانت المدينة مهيأة لهذا المرح أحسن تهيئة ، حتى إذا ضاقا بصخبها خرجا إلى « مرج القطة » على ضفاف الوادى الكبير ، فيجلس ابن عمار إلى المعتمد فى هذا المنفسح العريض من الخضرة يحف به نهر صاف يكمل الجمال الذى يشيع فى الروض .

جلس المعتمد إلى ابن عمار ، وقد اقتعدا السندس يرنوان إلى ذلك النهر تمسه نسمات من الهواء ، فتجرى مياهه فى تموج رجراج كأنه شعر غانية ترسله ، وإن الشاعرين لينعمان بتلك النسمات تنفح وجهيهما بهواء لين كأنما هو القبلات الرقيقة تغمر به الحبيبة وجه من تحب ، وإذا الشاعران يصمتان تائهين تيه المخلوق أمام روعة الخالق . ولكن المعتمد كان أسبق من ابن عمار فى التخلص من إنسانيته ليرف إلى شاعريته ، فهو يتكلم دون أن يلتفت إلى ابن عمار ،وإنما هو ناظر إلى النهر لا يريم ، يقول المعتمد :

أجز يا ابن عمار :

ترقرق الماء بهفهاف النسيم واطرد
يا لوحة أبدعها بفنه الفرد الصمد

ولكن ابن عمار يغرق فى صمته وتخشعه ، ويهم بأن يسأل المعتمد أن يعفيه من إكمال الأبيات ، ويهم بأن يعتذر بروعة المنظر المسكتة عن عجز ، فهو يعرف أن أى كلام مهما يكن شعره هو أو شعر المعتمد لن يحيط بهذه الفتنة التى تحيط بهما .

وأوشك ابن عمار أن يفعل ، ولكن صوتاً رقيقاً عذباً ينساب من قريب يخاله الشاعر نسيما من النسيم ، أو خفقة من النهر ، أو صوتاً للكون الطروب حولهما قد انبعث يكمل البيتين ببيتين .. ويلتفتان إلى الصوت فيجدان حورية قد جلست منهما غير بعيد رانية إلى النهر غير ملتفتة إلى الصاحبين ، وإنما هى تنشد شعرها وكأنما تنشده لنفسها ، وينظران إلى جانب وجهها فيريان جمالا لم يرياه من قبل وهما المعتمد وابن عمار ، ثم يسمعان شعرًا لم يسمعاه من امرأة قبل وهما : المعتمد وابن عمار . قالت الفتاة :

أجمل بها يوم الوغى   لو أن ذا الماء جمد

تخالها منسوجة   من حلق ومن زرد

ويقفز الشاعران من مكانيهما ويهفوان إلى تلك الحورية التى انبعثت لا يدريان من أين ، ويسرع المعتمد إليها فيضع يده على جسمها ، فقد خشى أن يكون الخيال قد خلق ما يريان ، ولكن الحورية تلتفت إليه وفى فمها ضحكة ، وفى وجهها بشر ، وفى عينيها وميض ، ثم هى تقول :

ـ بل هى حقيقة أيها الأمير .. بل هى حقيقة .

ويضطرب المعتمد من ذلك الجمال الذى شع فى عينيه فهو يقول :

ــ وتعرفيننى ؟

ــ ومن لا يعرف الأمير الشاعر وصاحبه الوزير ؟

ــ فمن أنت إذن ؟

ــ أنا روميكا .

ــ أشاعرة أنت ؟

ــ بل جارية .

ــ بل أميرة .. دونك والقصر .

وتذهب روميكا إلى القصر ، ويشتريها المعتمد من صاحبها ويتزوجها ، ويبدأ حب فى قصر المعتمد هوحبه الأول والأخير . فقد عرف النساء من قبل جوارى ولكنه لم يعرفهن حبيبات ولا شاعرات .

ويغير المعتمد اسم روميكا فيصير « اعتماد » . وابن عمار يرى هذا فيفرح به ، فقد سقط عن كاهله تدبير المجالس والنساء وفرغ للإمارة وحدها لا يشغله عنها إلا أن يجلس أحياناً إلى المعتمد ، فلا يسمع من المعتمد إلا عن اعتماد إن كان شعرا فشعر أو يكن حديثاً فحديث ، وابن عمار فى الحالين يشجع المعتمد أن يسير فى حبه ، فما الشباب إلا حب وما الشعر إلا خفقة القلب صيغت ، والمعتمد يقبل على هذا الحديث إقباله على حب اعتماد ، والإمارة بين حديث ابن عمار وفراش اعتماد ضائعة لا تعرف أميراً غير وزيرها ، فالوزير منفرد بالأمر .. ولم يكن الوزير ذا ضمير مرهف ، ولم يكن ذا مال ، ولا هو بذى قناعة .. وقد عرفت يده كيف تمتد بعد شعر المديح يقوله

لسانه ، فهى اليوم تعرف كيف تمتد بعد شعر المديح تسمعه أذنه ، وإن لم يكن لهذا سعى إلى الوزارة . فلماذا ؟؟ فما هو بالوطنى الصادق الوطنية لوجه الشرف ، ولا هو بالوفى الخالص الوفاء لآل عباد ، إن ابن عمار لم يكن صادق الوفاء ، ولا خالص السعى إلا لابن عمار وحده . وبهذا المبدأ الواقعى سار ابن عمار فى وزارته وسارت به الأيام ، حتى إذا فاض المال لديه علا رنينه . وللمال الحرام رنين ضخم لو أن آذان المعتمد خلت لحظة لصكها ، ولكن من أين لها وهى تمتلئ بحديث الحب فى المساء وبالحديث عن الحب فى الصباح ؟ .. ولكن الرنين يعلو وتتواكب أصداؤه حتى تبلغ آذان المعتضد ذاته فى إشبيلية فيثور .

ويصبح المعتمد ذات صباح فيقصد إلى الإيوان ويرسل فى طلب ابن عمار ، ولكن الحاجب يستأنيه حتى يرى رسول أبيه ، ويدخل الرسول فإذا هو يحمل ورقة يأمره أبوه فيها أن ينفى ابن عمار من شلب . ويسأل الرسول تفسيراً لما يحمل فما يحير الرسول بجواب ، فهو لا يعرف ماذا يحمل . ويعود الأمير إلى الورقة فيجد الأمر قاطعاً أبكم لا يبين بغير الأمر وحده .. فتدمع عين المعتمد ، ويعود إلى طلب ابن عمار فيأتى الوزير ويهم بأن يفسح للحديث ما كان يفسح . ولكن المعتمد مقطب الوجه مغرورق العينين مكروب النفس ، فلا يسأله ابن عمار عما به فقد تعود أن تتهدى إليه نفس المعتمد دون أن يسعى إليها .. ولا يطول الصمت بالمعتمد بل هو يفضى لابن عمار بما حمله الرسول ، فيخف ابن عمار عن المعتمد وإن يكن الخبر قد أكربه ، إلا أنه يعلم من أين يلج إلى النفوس ، ويعلم أنه لو أثار المعتمد على

أبيه فإنه قد يثور لحظة ثم تمسك به بنوة ويهبط به إيثار لسلامة . فهو إذن يحاور المعتمد ويسوق إليه أن أباه لم يرد إلا خيره ، وأنه إنما أمر ليتيح للمعتمد أن يقوم بأمر الإمارة وحده بغير معين يمرن على الحكم ويحسن الدربة . ويصل هذا الحديث إلى نفس المعتمد فيخفف مما يحس ، ثم هو يلتفت إلى ابن عمار ليقول له :

ـ أنا أعلم أنك احتملت عبء الوزارة فلم تصب منه مالاً ، فحتى تجهز أمرك أكون قد دبرت لك ما يعينك فى غربتك ، وإنى سأظل على وصلك ما دمت بعيداً حتى يقضى اللّه أمراً وألقى أبى فأترضاه ، وتعود الأيام صافيات كما كن .

وقد استطاع ابن عمار وهو يسمع هذا الحديث أن يحدر دمعتين بدتا نابعتين من القلب ، وإن يكن ابن عمار نفسه قد عجب كيف بدرتا من العين .

وخرج ابن عمار يستهدف أقاصى الأندلس ، وحاول من تركهم فى « شلب » أن يفضحوا أمره للمعتمد ، فراحوا يتحسسون نفس المعتمد ليروا أى اللونين تقبل أهو مديح ابن عمار أم هجاؤه ، فرأوا المعتمد باكى النفس على فراقه ، دامع القلب لهذا الأمر الأصم الذى صكه من أبيه ، فإذا هم يحيدون بما كانوا ينتوونه من ذم واغل إلى مديح مفرط لابن عمار يتقربون به إلى المعتمد ، فتفتح آذان المعتمد لهذا المديح ويزيد حبه له إن كان ثمة مكان لزيادة ، وهكذا يظل ابن عمار فى نفسه هو الصديق المخلص وهو الوزير الأمين وهو كل شىء فى حياته ما خلا اعتماد .

٥ ـ إلى الطريق

إلى الطريق عاد صديقه ... ولكن أى عودة ... لقد تركه على حمار متهالك لا يجد قوته ثم عاد إليه يمتطى صهوة حصان صافن أصيل أجرد شبعان ... وقد تركه وهو أشعث أغبر لا يستر جسده إلا أخلاق بالية مركبة عليه تركيباً ، وهو يعود إليه أنيقاً وضيئاً ملبسه من ثمين الخز ورقيق الحرير وقد فصل عليه تفصيلا ... وقد تركه وهو شاعر خامل لا يكاد يحس به حماره الذى يحتمله وعاد إليه الوزير الفذ والشاعر الضخم صديق الملوك ورفيق المعتمد ... ابن عمار .

عودة ميمونة تلك التى يعودها ابن عمار إلى الطريق ، فهو اليوم ملىء الجيب آمن عوادى الطريق والتواءات الملوك وارتفاع الأنوف ... فلقد أصبح هو نفسه ممن يسمعون شعر المديح فيلوون رؤوسهم من الكبر ، وترتفع أنوفهم من العظمة ... فليعد إذن ولكن وزيراً يعود .

ذهب ابن عمار إلى أقاصى الأندلس ، ومن هناك أرسل شعره إلى المعتمد ليصل مستقبله بمستقبل أمير اليوم وملك الغد ، وليعرف المعتمد أين استقر بشاعره المقام فيصله إن أراد وصله ، أو يطلبه إن عفا عنه أبوه ... أرسل إليه قصيدة من خير قصائده يقول فيها :

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم وفيّ وإلا ما نواح الحمائم
وعنى آثار الرعد صرخة طالب لثأرٍ وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغـر ولا قامت له فى مآتم

ثم هو يميل إلى المعتضد يمدحه ، وإن له فى مدحه لمذاهب ، فهو يترضاه ، وهو يظهر للمعتمد خضوعه مهما يفعل به المعتضد ، وهو يمدح الأب لابنه عالماً أن مدح الجريح لجارحه يعلى من شأن المادح ، فهو يتقرب من نفس الابن ويرضى فيه حبه لأبيه ويبدى مشاركته له فى هذا الحب ... يقول ابن عمار عن المعتضد :

أبى أن يراه الله إلا مقلدا حميلة سيف أو حمالة غارم

وتصل القصيدة إلى المعتمد فيبكى مع الغمائم الباكية ، ويكاد ينوح مع الحمائم لولا الرجولة والشهود . ويعلم من الرسول أين مكان ابن عمار فيصل بكل ما يستطيع أمير صديق أن يصل . ويعود الرسول يحمل إلى ابن عمار المال خير دليل على حب مقيم وصداقة ما زالت أصيلة الجذور فى نفس المعتمد ، يعلم اللّه وحده مدى ما تأدت إليه فى نفس ابن عمار . ويعود ابن عمار فيكتب شعراً جديداً يبدأه بغزل رائع ، ويرسل بالقصيدة :

جاء الهوى فاستشعروه عاره ... ونعيمه فاستعذبوا أواره

لا تطلبوا فى الحب عزا ، إنما ... عبدانه فى حكمه أحراره

قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم ... يا حبذاه وحبذا إضراره

قلبى هو اختار السقام لجسمه ... زيا فخيره وما يختاره

عيرتمونى بالنحول وإنما ... شرف المهند أن ترقّ شفاره

وشمتّمُ لفراق من آلفته ... ولربما حجب الهلال سراره

أحسبتم السلوان هب نسيمه ... أو أن ذاك النوم عاد غراره

إن كان أعيا القلب من حر الجوى ... خذلته من دمعى إذن أنصاره

والقصيدة بعد ذلك مفضية إلى مدح المعتضد ، وما يكاد المعتمد يقرأها حتى يجن بها ، ويرتاح إلى هذه الخطة التى انتهجها ابن عمار فى مدح أبيه . ويمتد أمله إلى صفح أبيه عن ابن عمار إن هو قرأ هذا الشعر ، فهو يعلم أن أباه يطرب للشعر الجميل ويرتاح إليه . ويدعو المعتمد رسولا يهم أن يبعث به إلى أبيه حاملا القصيدة ، ولكنه ما يكاد حتى يسمع ضجيجاً عالياً وصخباً يقترب من حجرته إلى أن يبلغها . ويفتح الباب ويدخل رسول من عند المعتضد يلهث يخبر المعتمد أن أباه اشتد به المرض وأنه يدعوه . فيقوم المعتمد من مجلسه إلى حصانه فلا يتزود بشىء حتى ولا بنظرة من اعتماد ، ويغمز المعتمد الحصان ويصل إلى أبيه فيجده ينتزع أنفاسه الأخيرة فيمثل أمامه . فيوصى الأب ابنه بما يوصى به الملك خليفته . ويموت الملك المعتضد ويصير الملك إلى الملك أبى القاسم محمد بن عباد المعتمد آخر ملوك بنى عباد .

٦ ــ عند قوم

عاد ابن عمار إلى الملك المعتمد وقد أمن الدهر وعواديه ، واطمـأن إلى المقام فى إشـبيلية عاصمـة الملـك ... وعـادت الليـالى وضـاء كمـا كن ، وأصبح ابن عمار وزير دولة بنى عباد أجمع ، وقد أراد ابن عمار أن يفعل شيئاً عقـب توليـه الـوزارة ، فزيـن للمعتمـد أن يفتـح قرطبـة ففتحها ، فكان هذا بداية رائعة لعهد حافل بالأحداث .

ويرى الوزير الجليل أن القصر لم يصبح بالمكان الـذى يليـق بـه فـى منصبه الجديد ، فقد كان هذا القصر يصلح حين كـان شـاعر المعتضـد أو صديق المعتمد أو وزير شلب ، أما وهو وزير الدولة المدلل ، فلابـد للوزيـر مـن بيـت ، فقـد أصبـح الوزيـر ذا عائلـة وأولاد أنجبهـم مـــن الجوارى اللواتى أنعم بهن عليه المعتمـــد ، فلابـد إذن مـن بيـت ولابـد لبيت الوزير أن يكون ضخماً شاهقاً متسع الجنبات ... فإنه الوزير .

وقد اتخذ الوزير مســكناً وسمـى باسمـه ، وأحـس ابـن عمـار بحـلاوة الجرس الذى لم يسمعه قط ، فقد أصبح الناس يقولون « بيت الوزير »

أو « بيت ابن عمار » وقد كان كل مناه أن يسمع اسم الحجرة يضاف إلى اسمه .. إنه لم يسمع « حجرة ابن عمار » إلا حينما تعلق بصلة من القصر . ثم هاهو ذا أصبح لا يرضيه قولهم « حجرة ابن عمار » ولا قولهم « جناح ابن عمار » فأصبح له بيت بأكمله ذو حجرات وأجنحة .

إن يكن الوزير قد ابتنى بيتاً فأصبح بيت ابن عمار ، إلا أن ابن عمار لم يكن يلم ببيته هذا إلا إلمامة العاجل التى لا ريث بها ولا هدوء ، فأغلب أوقات صباحه بين الديوان ومجلس المعتمد ، وهو فى أغلب لياليه مع المعتمد يقضيها سمراً ولهواً أو يقضيها نوماً فى القصر .. هو لم يطلب البيت لمبيت وإنما طلبه ليتصل اسمه ببيت وقد اتصل ...

وأقبل المعتمد يوماً على ابن عمار وطلب إليه أن يعد له ليلة من ليالى شلب ، تلك التى كانت قبل أن يعرف اعتماد . ويذعن ابن عمار ويعد الليلة فى خبرة ودربة ومران ، ويقبل المعتمد على المرح فيشيع السرور فى الجلسة ، ويغبط المعتمد نفسه بما أنعم به اللّه عليه من حب وفىّ هو اعتماد ، ومن صداقة مخلصة حكيمة هى ابن عمار . ويشيد المعتمد بقدرة ابن عمار النابغة فى السياسة وفى الشعر ، وحتى تهيئة الليلة الأنيسة . ويبالغ المعتمد فى تلك الإشادة ويقرب ابن عمار أكثر مما تعود أن يفعل ، وكلما دارت الخمر برأسه رفع من شأن ابن

عمار حتى أذن الليل بزوال ، فإذا المعتمد وقد أصبح ثملا ، وإذا هو قد أبلغ ابن عمار ذروة السها . وينفض المجلس ويوشك ابن عمار أن ينصرف إلى بيته ، ولكن المعتمد يمسك به ويقسم أيمانا مغلظة أن يبيت ابن عمار معه على وسادة واحدة . ويتحرج ابن عمار أول الأمر ولكنه لا يملك من أمر نفسه أمراً ، فهو يتبع المعتمد فرحان جذلان إلى حجرة أعدت للنوم . ويستلقى المعتمد ويطلب إلى ابن عمار أن يستلقى إلى جانبه على أن يضع رأسه معه على وسادة واحدة . ويهمان بحديث ، ولكن السهر والخمر والتعب ما لبثت أن عقدت أجفانهما .. نام ابن عمار يكاد صدره يتفجر بالسرور ازدحم به ، وإن تكن اليقظة قد هيأت له هذا السرور إلا أن النوم أبى أن يسكت عنه .. فإن الأحلام لتتواكب أمام ابن عمار ثم تنشق عن رجل أشيب جليل ناصع الإشراق ، يومئ إلى ابن عمار ويتحدث فى هدوء ، فيقول زائر الحلم :

- هيه يا ابن عمار .. هل أمنت كيد الملوك واستراح بك المقام ووثقت من المعتمد ، فأنت إذن تمرح فى سرور مطمئن ونشوة صافية ؟.. أفق أيها المخمور ، لذ بنفسك إن المعتمد سيقتلك .. نعم هذا الصديق الحبيب .. نعم هذا الذى انتشلك من على ظهر الحمار إلى دست الوزارة .. هو نفسه سيقتلك ..

وفزع ابن عمار من نومه وقد أرسى فى نفسه إنذار الحلم ، وقد شعشعت فى رأسه خمور أمس ، فهو يتسلل من الغرفة خائفا ، ويمشى فى دهاليز القصر قاصدا إلى الباب الخارجى ، ولكنه ما يلبث أن يقف باهتاً حين يقرع صوت المعتمد أذنيه .

تقلب المعتمد فى فراشه ووضع يده حيث طلب من ابن عمار أن يلقى بنفسه ، ولكنه لم يجد ابن عمار فقام من فوره ونادى بالخدم وسألهم عنه فما علم أحد عنه شيئا . فطلب مصباحا وخرج إلى دهاليز القصر يتوكأ على سيفه يبحث عن ابن عمار ومن خلفه حاشيته أجمع ، وطال بهم التطواف بغير جدوى . فوقف المعتمد يتساءل فيدير خدمه رءوسهم ويضربون أكفهم بأكفهم . وبينما هم كذلك إذا بحصير يتزحزح من مكانه ، فانعقدت ألسنتهم واتجهت رءوسهم إلى حيث كان الحصير قد وقف ، وامتنعت أكفهم عن ضرب نفسها وامتلأت نفوسهم بالذعر .. إلا أن المعتمد قد كره أن يظنوا به خوفا وما هو بالجبان ، فهو يقصد إلى الحصير ويرمى السيف من يده ويطبق على الحصير فيجد بداخله أعضاء آدمى ما يلبث أن يصيح : « عفوك يا مولاى » ..

فيصيح به المعتمد .

ـ من ؟؟

فيتخلص صاحب الحصير منه ، وإذا هو ابن عمار عارياً لا يكسوه غير فضلة من ثياب . فيصيح المعتمد مرة أخرى صيحة داهشة عاجبة من ذلك الذى آثر الحصير على فراش الملك .

ــ ابن عمار .

ــ نعم مولاى ، ابن عمار .

فلا يملك المعتمد من نفسه إلا أن يضحك لصديقه ويفرح أن وجده ، فكأنما هو عائد من سفر بعيد ، ثم يسأل ابن عمار فى غبطة :

ــ ما الذى فعلت بنفسك ؟؟

ــ عفوك يا مولاى ، فقد زارنى فى النوم طائف حذرنى منك وقال إنك قاتلى ، فقلت أهرب وكفانى ما لاقيته عندك من الخير ، ومن أيام إن جعلتها زاد حياتى من السعادة كنت أسعد من ولد ومن هو فى مطوى الغيب سعيد . لقد رأيت منك الرضى وأخشى أن أرى الغضب ، ولقد بلغت عندك الذروة وليس بعد الذروة إلا المنحدر . والملوك مولاى لا يستقرون على حال . فلو أنك انتقمت منى للسعادة التى أشهدتنيها لكان انتقامك فوق الشدة .

فتترقرق الدمعة فى عين المعتمد ويربت كتف ابن عمار ويهدئ روعه ويقول له فى صوت متهدج بالبكاء :

ــ يا أبا بكر ، إنك أخو شبابى ومجلى شعرى وشقيق حياتى وخدن حاضرى .. عرفتك وأنا بعد فى زهرة الشباب ، وصحبتك منذ

عرفتك حتى بلغت الكهولة أو كدت .. أأقتلك !! أرأيت شخصاً يقتل شبابه وشعره وماضيه وحاضره .. أفق ابن عمار إنها لآثار نوم وخمار .. فوالله لو شهدت هذا الزائر الذى بث إليك الخوف لقتلته أن أقلق منك مضجعاً وخوف منك آمنا ..

ثم يلتفت إلى حاشيته يأمرهم أن يحضروا قسطا من اللبن فيحضرون ويسقيه لابن عمار ، ويذهب به إلى الوسادة ويناما ن .

نومة لم تكن هادئة ، تلك التى أصابها ابن عمار ، فقد أصبح من نومه ولا هم له إلا أن يباعد بينه وبين المعتمد قليلا حتى يطمئن ما أثير بنفسه ، ويهدأ ما اضطرب من خاطره ، ولكنه لم يستطع أن يسوق إلى المعتمد ما يعتمل بنفسه في صباحه هذا . فتريث حتى نسى المعتمد ما كان من أمر الحلم والهاتف ، ثم تقدم متودداً وقال له :

ـ مولاى ... بقيت ... فإنى لأطلب منك الكثير وأنت تجيب ، حتى لقد غدوت أخشى الإثقال عليك .

ـ ألا إن من وراء قولك لمطلبا ..

ـ هو ذاك يا مولاى .

ـ فقله .

ـ حتى تقسم .

ـ بصداقتنا .

ـ أريد ولاية شلب .

فيألم المعتمد لهذا الطلب ، ويبادر ابن عمار :

ـ أملالةً يا أبا بكر ؟

ـ لا عشت إذن ... ولكنني يا مولاى شهدت نفسى بشلب هذه وأنا فقير ، وربيت بها وأنا لا أملك شيئاً ، حتى لقد تركتها وخرجت أطوف بالملوك أمدحهم فما أصبت من ذلك شيئاً ، ثم عدت إليها عودة لا كانت . لقد شهدت نفسى هناك جائعاً على حمار جائع ، عريان على حمار متهالك ، حتى لقد أسمحت لى نفسى أن أمدح تاجراً لأصيب منه حفنة من شعير ... ثم تعلقت أسبابى بك .. وللنفس بدوات .. إن نفسى لتشتهى اليوم أن تشهد نفسها هناك وفى هذا البلد والياً عليها من قبلك ، وإن آمالى لا عدمتك ، تظل آمالا حتى تلقى بين يديك فإذا هى حقيقة ، وإن أمانى لا تزال أمانى حتى تنتهى إليك فإذا هى واقع .

وهكذا غدا ابن عمار والياً على شلب مهد طفولته ومدرج حياته ومغنى شبابه ، وأيام فقره .

فإليها إذن يعود .. والياً يعود .

٧ ــ ... وعودة

إلى شلب عاد ابن عمــار ... لم يعـد الشـاعر الطريـد ، ولا راكـب الحمار المتهالك ، ولا مادح التاجر ولا مستجدى القمــح ، وإنما عـاد الأمير الخطير صديق الملك .. عاد وهو صاحب الموكب الضخم يتبعـه الخدم والحاشية ، وتنساق من قبلــه الطوالـع والأعـلام وتـدق الطبـول ويعلـو الزمـر .. ووقـف أهـل شـلب الذين نظـروا إليـه علـى حمــاره يسخرون أو يشفقون أو يتعجبــون ، وقفـوا اليـوم يرحبـون ويكـبرون ويعجبون ، ولم يــدر بخلـد النـاظرين أن صـاحب الحمـار هـو صـاحب الموكب ، بـل إن صـاحب الحمـار هـذا لم يجر علـى ذاكرتهـم فهـم لم ينعموا النظر فى الحمار أو راكبه ، وإنما كـانوا يعبرونـه بنظرتهـم ، أو يعبرهم هو بحماره فما أدركوا من ملامحه شيئاً . ولـو أن واحـداً منهـم كان قد أنعم النظر ثم أنعمه حتى عرف ملامح ابن عمـار أجمـع ، فـإن هذا الواحد لا يجرؤ بحال أن يذكر ابن عمار والحمار فى هـذا الموكـب الضخم . وأين ذلك النضو القمىء من هذا الأمير العظيم ، وأين ذلك

الحمار المتهالك من هذا الموكب الضخم . وأين هذا الطيف الذى مر رهواً لا يحس به أحد من هذا الذى أقام المدينة وما زالت قائمة .. لا .. لا صلة بين الشخوص ولا نسب .

إن يكن أهل شلب جهلوا الصلة بين صاحب الحمار وصاحب الموكب فإن ابن عمار يدرك هذه الصلة تماماً ، وهو إن يكن اليوم فى هذا الموكب الضخم الأنيق من الطبول والزمور فهو لم ينس شلب ، وكل أمانيه أن تعمى العيون حوله وأن يصيب حفنة من غلال ... لم ينس ابن عمار الحمار والتاجر والشعر والصبى والشعير ، بل إنه أخذ نفسه أن تذكر هذا الذى كان فيه حتى يحمد ما هو اليوم فيه ، فهو يحمل معه ذلك الكيس الذى أنقذه وأنقذ حماره من جوع بما حمله من شعير .. هو يحمل الكيس معه لم يفقده فى كل مناصبه التى تولاها ولم يفقده فى الذروة التى اقتعدها وإنما أبقى عليه ليشكر به من أنقذه .. فما يكاد يجلس على كرسى الإمارة حتى يرسل من يبحث عن التاجر فيجده ، ويعلم ابن عمار أن الخشية قد تولت هذا التاجر حين علم أن الأمير يبحث عنه ، فيشفق عليه أن يستقدمه ويكتفى بأن يرسل إليه الكيس وقد ملأه فضة ، وأوصى من يحمل الكيس إلى التاجر أن يقول له ... « لو كنت ملأته براً لملأناه تبراً »[1] .

---

[1] التبر : الذهب .

وتشيع قصة الكيس بين أهل شلب فيكبرون ابن عمار ويـرون فيه رجلا لم يتنكر حاضره لماضيه ، ولم تزهه الإمارة أن يذكر ذلك المـاضى العريق فى هذا البلد . وكان أهل الأندلس فى ذلك الحـين قوماً ذوى حـس مرهـف يقـدرون اللفتـة الكريمـة ، ويكـبرون النفـس العاليـة ، ويعجبون بالخلق المكتمل . وقد كـان ابـن عمـار يعـرف فيهـم هـذا ، وكان يعرف تماماً أخلاق أهل شلب خاصـة ، فهـو خبـير بمـا يرضيهـم عالم بما يجلب له السمعة الطيبة والاسم الكريم ، وهو إن كان قـد نـال من ماهم حين كان وزير المعتمد لديهم ، إلا أن الأمر قد اختلف اليـوم تمام الاختلاف ، فابن عمار الوزير كان يعمل باسم المعتمـد فمـا أيسـر أن يلصق بالمعتمد التهم ، أما ابن عمار والى شلب فلا يحمل غـير اسـم نفسه فإن أساء فهو إنما يسىء إلى هذا الاسم وحـده ، وقـد كـان ابـن عمار يحب ألا يسىء إلى هذا الاسم ، وابن عمار الوزير كان فقـيراً أو هو فى الحق جديد على الغنى يجـب أن يسـتكثر مـن المـال خشـية مـن الغد ، وقد كان محقاً فى تفكيره هذا ، إذ سرعان ما حققته الأيام وأمر به المعتمد فنفى . أما ابن عمار والى شلب فغنى قديم فى الغنـى ، أمـن الغد ، وما بعده من أيام مهما يشتد بها السـواد . وابـن عمـار الوزير جديد فى المنصب الكبير لا يهمه أن تصل السمعة السيئة إلى اسمه فهـو حتى ذلك الحين لم يكن يحمل اسماً ، أما ابن عمار والى شلب فذو اسـم وذو ماض يهمه أن ينفى السيىء منه فلا يبقى غير الحسن ، فهو يـأمل

أن يحسن السيرة فى شلب عساه أن يجعل عارفيه فى الوزارة يحسنون به الظن . وهكذا سار ابن عمار فى طريقه على خير ما يسير وال فى ولايته ، فهو عادل أمين حصيف عالم بدقائق الأمور .

وقد تحدث الناس بسيرة الوالى الجديد وتسامعوا عنه خيراً ، وارتقت سيرته إلى المعتمد ففرح بصديقه وبما يبنيه لنفسه من مجد . ولم يهمه أن الوالى الجديد كان يقوم بأمر ولايته دون أن يرجع إليه فى جلائل الأمور ، ولم يهمه أنه استقل بالأمر وحده وأصدر الأوامر باسمه ... لم يهمه هذا لأنه كان يحب ابن عمار ويثق به مطمئناً أنه مهما يستقل بالأعمال فإنه لن يستقل بعواطفه ، وسيظل هوهو الصديق الوفى والأخ الحبيب .

لم يهمه شىء من هذا ولكن شوقه إلى ابن عمار ولياليه هو الذى يهمه ، فهو يضيق بأشبيلية من غير ابن عمار حتى ليرسل إليه الشعر يخفف من بعض شوقه ... وأرسل إليه يوماً قصيدة يقول فيها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر[1] وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب[2] عن فتى له أبداً شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد ، وبيض نواعم فناهيك من غيل . وناهيك من خدر

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها بمخصبة الأرداف ، مجدبة الخصر

---

(١) كناية لابن عمار .

(٢) قصر الإمارة فى شلب وهو غاية فى الروعة .

وبيـــض وسمـــر فـــاعلات بمهجتـــــى فعال الصفاح البيض والأسل السمر

وليـــل بســـد النهـــر لهـــوا قطعتـــــه بـذات ســوار مثـل منعطـف البـدر

نضـــت بردهـــا عن غصن بان منعم نضـــير كما انشق الكمام عن الزهـر

وقد كـان ابـن عمـار يسـتقبل هـذه الأبيـات جـامد الحـس هـادئ الشعور فى داخله ... وكان يستقبلها فى بشر عريض وفرح غامر فـى ظاهره .

ولم يطل الأمر بالمعتمد وشوقه ، ولم يطق أن يظل البون شاسعاً بينـه وبين إلف روحه وشقيق فنه ابن عمار ... فأرسل إليـه يسـتقدمه فقـدم إلى إشبيلية ، وعوضه المعتمد عن منصبه الذى فقده خيراً ، فعينه كبيراً لوزراء الأندلس . فرضى نفساً ونسى ما كان من أمـر الحلـم القـاتل ، واطمـأن جانبـه إلى المعتمـد وعـادت الأيـام تصل مـا انقطـع ، وسمـا بـالصديقين إلى مزيـد مـن الصداقـة للمعتمـد ومزيـد مـن ارتقـاء لابـن عمار ..

٨ ـ دهاء الوزير

لم تكن الأندلس فى ذلك الحين خالصة الحكم لملوكها ، فلقد كانوا أضعف من أن يقوموا بالأمر وحدهم . وقد انتهز الإفرنج هذا الضعف فراحوا يهددونهم فى ديارهم ، ويفرضون عليهم الجزية لقاء سكوتهم عنهم . ولقد أذعن الملوك لهذا التهديد فدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فما كان الخلف بينهم ليترك لهم سانحة يفرغون فيها من عدوهم المشترك ، ولو كانوا قد تضامنوا لتغلبوا عليه ... ولكن من أين لهم وقد تقطعت بينهم السبل فأصبح ما بينهم وبين بعضهم خراب بلقع لن يعمره الشر الذى يحيق بهم ، ولن يصله العدو الذى يتنمر لهم .

ولقد كان هذا العدو حصيفاً ؛ فهو لم يهجم لأنه يعلم أن جيوشه لا تكفى ، فهو يهدد فى تبجح ، فتهلع نفوس الملوك فهى خائرة ، وهو يطلب الجزية فتمتد بها أيدى الملوك صاغرة ذليلة .

ولم يكن حال المعتمد خيراً من حال إخوانه ، وإن يكن هو أقواهم وأعزهم جانباً إلا أن أمواله كانت جميعها منزوفة على مطالب اعتماد

وقد كانت لا تنتهى ، والقليل الباقى لم يكن كافياً لإقامة جيش ولكنه كان كافياً لأن يدفع الجزية فهو يدفعها .

وكان الأذفونش كبير ملوك الفرنجة فى ذلك الحين هو الذى يتقاضى الجزية من المعتمد ، ومن ثم كان على صلة وثيقة بابن عمار . وقد كان الأذفونش معجباً به كل الإعجاب ، حتى لقد أطلق عليه اسم « رجل الجزيرة » فكان كلما مر اسم ابن عمار فى حديث يسمعه الأذفونش قال عنه « هو رجل الجزيرة غير منازع » . وقد علم ابن عمار بما يقوله عنه ملك الفرنج فارتاحت نفسه إليه ، وكان يخرج إليه بالجزية فعرف عاداته وعرف ما يحب وما يكره ، وعرف هواياته فما غفل شيئاً مما يحيط به .

ولكن هذا الإعجاب الضخم الذى يكنه الأذفونش لابن عمار لم يمنعه يوماً أن يأخذ الجزية كاملة بل إنه زاد على ذلك ...

أحس الأذفونش أن مملكة المعتمد فى حال ضعف شديد ، وكان هو قد تكاثر المال لديه فانتوى فى نفسه أمراً ولم يسكت عند النية ...

وبينما كان المعتمد فى إشبيلية على حاله لا يفيق من حب اعتماد إلا ليجلس إلى ابن عمار ، وبينما كانت الدولة جميعها مشغولة لاعتماد تنفذ مطالبها وتحقق رغباتها ، كان الأذفونش يقوم بعمل أكثر قيمة وأجل منفعة .

وفى يوم نظرت اعتماد من شرفتها فرأت فتيات يملأن الجرار فحدقت مليا ، ثم همت بزوجها تريد أن تراه فى سريع حاسم من الأمر . ويسارع الخدم ومن خلفهم الجوارى يسألون عن الملك ، وكان المعتمد جالساً إلى حفنة من وزرائه يبحث معهم فى حاجة الدولة إلى المال . ولكن هذا لم يقف بالخدم أن يقتحموا المجلس ويطلبوا إليه أن يسارع إلى اعتماد فيسارع ، وإذا هى تطلب إليه أن يجعل لها ما تملأ منه الجرار فقد اشتهت أن تفعل مثلما يفعل أولئك النسوة . وينشىء المعتمد معجنة من المسك ومن ماء الورد تكلف الدولة ما كانت ستبذله لتقوية الجيش فلا يبقى بالخزانة إلا القليل .

كان هذا فى أندلس الإسلام حين كان الأذفونش يبذل من المال فوق ما تحتمل موارده جميعاً ليقيم شيئاً آخر غير معجنة المسك ، وليرضى غايات أخرى غير نفس امرأة .

وفى يوم بينما المعتمد جالس إلى النافذة يرنو إلى اعتماد ترفع ذيل الثوب عن أرجل ناعمات غائصات فى المسك وماء الورد ، وبينما المعتمد منتش بما يرى يستخفه الفرح ويصفق قلبه بين ضلوعه كأنه طائر يحوم حول من يحب .. وبينما السرور يشيع فى أجواء المعتمد إذا بوزير من وزرائه يدخل فلا يحتشم من مقاصير الحريم شيئاً وإنما هو يقصد إلى المعتمد لا يريم ، وإذا هو يصيح به :

ــ أدركنا يا مولاى .

فينتفض المعتمد فما كان بيده حينئذ أن يدرك أحداً ، وما كان يتوقع أن يتجاوز رجل مهما يكن وزيراً أعتاب اعتماد ... انتفض المعتمد من الدهشة ومن الغضب ، وإذا هو يقول للوزير بصوت يخنقه كل ما يثور بنفسه من اضطراب :

ـ ماذا أبا القاسم ... ماذا بك ؟

فيجيب الوزير هالعاً ملتاعاً .

ـ لقد هاجمنا الأذفونش بجيش أوله هنا وآخره لم يظهر حتى الآن .

ـ وأين هو ؟

ـ فى ظاهر المدينة .

ـ ومتى رأيته ؟

ـ لقد رآه من رآه فى باكر الصباح وما زال يتقاطر حتى الآن .

ـ ويحك وماذا نفعل ؟

ـ أمرك يا مولاى .

ـ علىّ بابن عمار .

وما أسرع ما يجىء ابن عمار ، وما أروع ما يرى من ملك مضطرب ووزير هالع ، فإذا هو يشرق بينهم كالأمن يشيع فى النفس ، وإذا هو هادئ أهدأ ما يكون المرء وكأن ما يلقى إليه بشريات لا أثر فيها للحرب فالقتل فالخراب والدمار ودولة تهوى وعرش يزول ... كأن شيئاً من هذا لم يلق إلى ابن عمار فهو يتكلم فى هدوء وهو يهدئ الروع الثائر ولكنه يقول عجباً ... يقول ابن عمار :

ـ مولاى ... إني مخلص الأندلس والإسلام من كل ما تخشاه ... كل ما أرجوه منك أن تفعله هو شطرنج .

فيذهل المعتمد ويسأله وكأنه لم يسمعه :

ـ ماذا ؟

ـ شطرنج .

ـ أتقصد الشطرنج الذى يلعب به ؟

ـ نعم ، أقصد الشطرنج الذى يلعب به .

ـ أتهذى ؟؟!!

ـ بل أجد .

ـ وماذا أنت فاعل به ؟؟

ـ هذا سرى يا مولاى ... فأبقه علىّ أبقاك اللّه .

ـ وكيف تريده أن يكون ؟؟

ـ أريده أفخم ما يكون الشطرنج .. أريده من خالص الذهب ومن خالص الفضة ، وأريد أمهر الصناع أن يتركوا أعمالهم جميعها فلا يفعلوا شيئاً إلا أن يتقنوا صناعة هذا الشطرنج .

ـ يسير مطلبك يا ابن عمار .. يسير مطلبك .

ويأمر المعتمد فيمتثل الصناع أمره ، ويفرغون للشطرنج حتى يفرغوا منه .. ويخرج ابن عمار إلى خيام الأذفونش فيلتقى بقادته والمقربين إليه . ويتكلم معهم حديثاً جارياً لا يقصد ظاهره إلى هدف ،

ولا يهدف فى لفظه إلى غاية ..يتكلم ابن عمار فإذا حديث الشطرنج وصفاته وإتقان صناعته حديث شائع بين خيام الأذفونش ، وإذا القوم لا يتكلمون فيما بينهم إلا عن الشطرنج حتى يرتقى حديثهم إلى الأذفونش ، وإذا الأذفونش وقد أصبح كل همه أن يرى هذا الشطرنج فهو يستدعى ابن عمار ويسأله :

ـ أصحيح ما يقال عن الشطرنج يا رجل الجزيرة ؟

ـ وما الذى يقال يا مولاى ؟

ـ يقولون إن الصناع قد أبدعوه إبداعاً ، فهو ما لم يـر الأوائل ولا الأواخر .

ـ ليس السماع كالعيان يا مولاى .

ـ فمتى أراه ؟

ـ متى تحب ؟

ـ فهاته الآن .

ـ أحضره الآن .

ويقوم ابن عمار إلى الشطرنج ، فما هى إلا بعض ساعة حتى يكون الشطرنج بين يدى الأذفونش يقلبه بين يديه عاجباً معجباً مادحاً كل قطعة فيه . ويرى ابن عمار إعجابه فيسكت ولكن الملك لا يطيق السكوت :

ـ كيف السبيل إلى مثله يا رجل الجزيرة ؟

ـ ليس إلى مثله من سبيل يا مولاى .

ـ وكيف ؟؟ إننى أبذل لنيله ما تشاء من المال .

ـ إن المال لا يعوق يا مولاى ..غير أن الصناع الذين قاموا بصناعته قد ماتوا جميعاً ، ولن يقدر على إبداع مثله صناع اليوم ..

ـ فليس من سبيل إلى مثله ؟

ـ إلى مثله لا سبيل ... أما إليه ... فلعل هناك سبيلا .

ـ وما هو .

ـ أراهنك عليه .

ـ علام .

ـ ألاعبك به فإن غلبتنى فهو لك ، وإن كانت الغلبة لى فإن لى عندك مطلباً .

ـ وما مطلبك ؟

ـ لا أقوله حتى تكون الغلبة لى .

ـ ولكنك تعلم أن أحداً لا يتقن لعب الشطرنج مثلما أتقن .

ـ وأعلم ذاك .

ـ ولكنك لا تبين عن مطلبك .

ـ حتى يتم النصر لى .

ـ لا أظننى أرضى بهذا ، فأنا لا أعرف مدى قدرتك فى اللعب ، وأنا لا أعرف مطلبك وأخشى أن يكون عسيراً .

ـ ولكنك يا مولاى تتقن اللعب إتقاناً فما خشيتك ؟

ـ إن الذى عند الملك كثير ، فأخشى أن يكون مطلبك كثيراً .

ـ أمرك إذن يا مولاى .

ـ أنظرنى إلى الغد .

وخرج ابن عمار من عند الملك واجتمع بقواده المقربين إليه كل على حدة ، وأغراهم أن يطمعوا الملك باللعب وألقم من يمد يده ذهباً ، وأفهم من لا يمدها أن الملك لا يجمل به أن يتراجع وهو اللاعب الحاذق .. وانتقل الإغراء إلى الملك ألقاه إليه أصحابه مظهرين له أنهم ينصحونه ، وأنهم يخشون أن يتسامع الناس بتقهقره .

ويطلع الصباح فإذا الملك قد انتصح بنصح قواده وإذا هو يرسل من يدعو ابن عمار فيجىء فيخبره الملك أنه قبل الرهان .

ويبدأ اللعب وقواد الأذفونش شهود ، فما يلبث ابن عمار أن يتغلب على الأذفونش غلبة واضحة لا سبيل إلى نكرانها . فيعترف الأذفونش بها ويغتصب ابتسامة يلصقها بفمه ويسأل ابن عمار :

ـ فما مطلبك يا رجل الجزيرة .

ـ لا شيء ، إلا أن يتفضل مولاى فيأخذ جيوشه ويعود بها من حيث أقبل .

يسمع الأذفونش هذا الحديث فتصبح ابتسامته تشنجاً مرتعشاً ويصيح بابن عمار :

ـ ويحك ، أجاد فيما تقول ؟

ـ ليس لى مطلب آخر يا مولاى .

فيعلم الأذفونش أن الوزير قد أحاط به فيلتفت إلى قواده ثائراً بهم .

ـ أرأيتم ما نصحتم به ؟.. أرأيتم ما أوقعنا فيه الرجل ؟ ولكن لا .. لا يمكن أن يصبح الهذر جداً .

فيجيب ابن عمار :

ـ إن هذر الملوك جد يا مولاى .

فيعود الملك إلى وزرائه يكاد يقتلهم من شدة غيظه ، فيتركه ابن عمار ثائراً هائجاً ويخرج ، ولكنه لا يترك الخيام قبل أن ينتظر القواد مرة أخرى فيلقمهم مالا أو يلقنهم أن كلام الملوك لا يمكن أن يتراجع فإنه كلام الملوك .

ويترك القواد ملكهم ليلتهم هذه ، ثم يصبحون إليه فيقولون له إنه وعد ووعد الملك تنفيذ ولابد أن يقوم بما طلبه إليه ابن عمار إيفاء للرهان . فما يصبح اليوم التالى حتى يكون الأذفونش قد دعا ابن عمار ، فيذهب إليه فيقول الأذفونش .

ـ لقد أوقعتنى يا ابن عمار ولن أنساها لك .

ـ أسيئة تحسبها لى يا مولاى أم حسنة ؟

ـ ويحك ، أتريدنى أن أعتدها لك حسنة ؟

ـ ومالك لا تفعل يا مولاى ألم أخدم بها ملكى وبلادى ؟

ـ ويحك ، قد يعتدها غيرى حسنة لك يا ابن عمار أما أنا فلا .. لا يا ابن عمار .

ـ بل سوف تفعل يا مولاى حين يهدأ ثائرك .

ـ والآن .

ـ والآن يا مولاى ؟

ـ لا أترك بلادكم حتى أنال الجزية مضاعفة هذا العام .

ـ أمرك يا مولاى .

وينصرف ابن عمار ليعود إلى الأذفونش بالجزية مضاعفة فيأخذها الملك مزمجراً ، ولكن ابن عمار يتقدم إليه بشىء كان قد لفه فهو لا يظهر ، ويسأله الأذفونش :

ـ وما هذا ؟

ـ فليزل مولاى عنه لفافته .

ويفعل الملك فيجد الشطرنج فيقول ابن عمار :

ـ هدية خالصة متواضعة من ابن عمار .

فيسر الملك من هذه اللفتة ، ويكاد ابن عمار أن يعود إلى سابق مكانته فى نفس الأذفونش ، ويعود الأذفونش إلى بلاده ويعود المعتمد إلى نافذته يرنو منها إلى اعتماد ، وذيل ثوبها قد رفع وقدماها قد غاصتا فى المسك وماء الورد .. إلا أنه فى هذه المرة لم يكن وحده بل كان ابن عمار إلى جواره يرنو هو أيضاً إلى جواريه يغصن بأقدامهن مع الملكة فى المسك وماء الورد .

٩ ـ صفقة .. أهي رابحة !؟؟

أحس ابن عمار بعد أن خلص البلاد من خطر الغزو أنه أصبح دعامة هذه البلاد ، وأحس أنه داهية في السياسة يتلاعب بالملوك ويرد بدهائه الجيوش عظيمة ما عظمت تلك الجيوش .. ثم أحس بعد فترة من الوقت أن ذكاءه لابد أن يجد شيئاً ينشغل به ، فما تعود أن يراح إلى هدوء ، وما كانت النساء مأرباً لحياته ، وهو لم يصطنع الخمر والجلسات المازحة إلا إرضاء للمعتمد ... ووافت ابن عمار أنباء عن مرسية المجاورة لأشبيلية والمستقلة عنها في الحكم ، وكان مؤدى هذه الأنباء أن مرسية تفتقر إلى الجيش ... وإن حاكمها على غناه لا يملك خيلا ولا رجلا ... وكان ملك مرسية في ذلك الحين هو « أبو عبد الرحمن بن طاهر » ينتمي إلى أصل عربي ، ويملك أموالا ضخمة لم تلهه عن ثقافة واسعة ، فكان حصيف الرأي قويم الفكرة ، وكان أيضاً ضعيف الجيش منكسر الشوكة .

وكان يقيم بجوار مرسية « كونت » يدعى « الكونت دى برشلونة ريمون بيرنجيه » وكان ذا قوة وأيد ، وكان صديقاً لابن عمار ... وهكذا تهيأ لابن عمار أن يدعى أنه ذاهب لزيارة هذا الكونت ، وكان لابد له أن يمر بمرسية فى طريقه إلى الكونت ... فلم يكن غريباً إذن أن يظهر ابن عمار فى مرسية ... وإن يكن رأى فيها بعض من يريدون خيانتها ، وإن يكن قد رشاهم فقبلوا الرشوة ، إلا أن هذا لم يكن إلا تحت ستار كثيف من الكتمان لم تخترقه أعين « أبى عبد الرحمن بن طاهر » .

وقصد ابن عمار إلى الكونت ، وأجرى الحديث فجرى إلى حيث يريد ، فإذا الكونت يتحدث عن مرسية وعن ضعفها ، وإذا ابن عمار يظهر فى الحديث إغضاء يكاد فى ظاهره أن يصل إلى اللامبالاة ، ثم لا يلبث أن يميل إلى الحديث رويداً ، ثم هو يشارك فيه ويشجع عليه فينطلق الكونت وينطلق ابن عمار ، حتى إذا رأى منفذاً إلى غايته نفذ فعرض على الأمير أمراً .

ـ ما دمت يا مولاى ترى هذا الأمر ، فما حبسك عن أن تعتسف هذه المملكة ، وإنها لثمرة ما تحتاج منك لغير أصبع تمدها .

ـ ومن أين لى المال يا ابن عمار ؟

ـ أيمنعك المال أيها الأمير ؟

ــ والله يا ابن عمار ، إن شئت الحق فإن المال وحده لم يكن ليمنعنى ، ولكننى أخشى أن أثير فى الدول الإسلامية الأخرى حفيظة لا أريدها أن تثور .

ــ لقد أصبت فاصلا من الأمر ، ولكن ماذا تراك تقول لو أن دولة عربية إسلامية هاجمت مرسية فاحتلتها ، وتصيب أنت ربحاً وأنت فى مكانك لا تريم ؟

ــ أكاد أفهم ما تريد ؟

ــ بل إنك لتفهمه .

ــ فزده إيضاحاً .

ــ أجيئك بالمال وتمدنى بالجيش .

ــ أليس الجيش دماء تراق فعائلة يتبدد شملها ، فزوجا أيّما ، وابناً يتيماً ، وأما ثكلى ؟

ــ ولكنه المال ... والحاكم ــ بعد ــ ينظر للمصلحة العليا ، فشأنه الملك وما شأنه زوجاً ولا طفلا ولا أماً .

ــ وهل الملك يا ابن عمار إلا هذه الزوجة وذلك الطفل وتلك الأم ؟

ــ ولكنك تريد مالا .

ــ وأريد رجالا .

ــ الرجال كثير ولكن المال ... المال .

ـ كم تدفع ؟

ـ كم تقبل ؟

ـ عشرة آلاف مثقال ذهباً .

ـ فإن كانت خمسة ؟؟

ـ عشرة .

ـ قبلت .

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل المبلغ ؟

ـ ومن يضمن لى أنك سترسل الجيش ؟

وحينئذ اقتحم الغرفة ابن أخى الكونت ، فكأنما وجد الكونت طلبته ، فهو يلتفت إلى ولد أخيه ويطلب إليه أن ينتظر ريثما ينتهى حديث .

ويخرج الفتى ثم يلتفت إلى ابن عمار قائلا :

ـ ابن أخى .

ـ مرحباً به .

ـ ألا تسأل من يضمن لك إرسال الجيش ؟؟

ـ أجل .

ـ وأنا أقول ابن أخى .

ـ ماله ؟؟

ـ يضمن لك .

ــ وكيف ؟

ــ تأخذه رهينة .

ــ وماذا تريد منى رهينة ؟

ــ أريد ابن المعتمد .

وأخذ ابن عمار بهذا المطلب ، ولكن تردده لم يطل فقد كانت القيمة المتفق عليها حاضرة عند المعتمد ، ثم ماله لا يتصرف فى أولاد المعتمد وقد تصرف فى المعتمد نفسه ؟ وما البأس الذى يخشاه ؟ ... لا بأس عليه إذن ، ولكنه عاد يسأل :

ــ وكيف يجيء إليك ؟ إن أباه لن يرضى كما تعلم . وأنا لن أخبره أن ابنه سيصبح رهينة لديك .

ــ ألن ترسل المال فى موعده ؟

ــ بلى .

ــ إذن فأخبر المعتمد أن ابنه سيتولى قيادة الجيش حتى يمرن على الحرب والقتال .

ــ لقد قبلت .

ــ وقد قبلت .

وخرج ابن عمار من عند الكونت وهو يعتقد أنه غلبه على أمره . والكونت يعتقد أنه غلب ابن عمار على أمره . وشاع فى نفسيهما الفرح بصفقة يعتقد كلاهما أنها الرابحة .

١٠ ـ مع الملك

عاد ابن عمار إلى الملك يقص عليه ما قام به فى رحلته تلك من أعمال ، والمعتمد يستمع وكله إعجاب بوزيره العظيم . وكيف لا وابن عمار لا يقص غير ما يرضى المعتمد ، فهو لا يروى له عن الرهينة التي ستكون ولده ، وهو لا يقص له غير أن عشرة الآلاف مثقالا ذهباً سوف يقدمها لريمون لينال بها ملكاً جديداً ، وفتحا مبيناً ، ونصراً مؤزراً ومجداً سامقاً .

سر المعتمد بهذا الاتفاق ، وعاهد ابن عمار أن يجهز الجيش ، وعاهده كذلك أن يؤدى المال إلى ريمون فى الموعد المضروب . ولقد دهش المعتمد بعض الوقت حين وجد ابن عمار يحذره أن يتأخر فى أداء هذا المال ... دهش أن وجده يحذره من تأخير يوم واحد فما كان ليدرى سبباً لذلك ، ومن أين له أن يدرى ...!! وحين حاول الشك أن يسرى إلى نفس المعتمد ، مال إلى ابن عمار يسأله عما يضمن له أن «ريمون» سيوفى بوعده ، فأطلق ابن عمار بسمة ساخرة وقال للمعتمد :

ـ مولاى ، أتعتقد أن ابن عمار يفوته مثل هذا الأمر ؟

ـ حسبتك فعلت .

ـ بل لا يا مولاى ، ولهذا ...

ـ ولهذا ؟

ـ أحضرت معى ابن شقيق ريمون رهينة عندى .

ـ بوركت ابن عمار ... بوركت .

وسد سبيل الشك فى نفس المعتمد ، وأصبح واثقاً أن الأمر سيدين له ...

تلفت الملك حواليه يبحث عن قائد للجيش وما كان بحاجة لهذا التلفت فهو يعلم أين هو ولكنه أغضى ... نعم هو يعلم أن ابن عمار خير من يقود الجيش ، ولكن كيف له أن يصبر عن بعده مدة أطول من تلك التى قضاها فى السفر !! ولكن ابن عمار يحتال وما أيسر ما يحتال ابن عمار على المعتمد ويتولى قيادة الجيش .

تهيأ ابن عمار للخروج من إشبيلية ، وأوصى المعتمد أن يرسل المال بمجرد وصول رسول منه يخبره أن ريمون أوفى بوعده ، وأن الجيوش من قبل ريمون قد اتحدت مع جيش المعتمد ... ولم ينس ابن عمار أن يحتال مرة أخرى فينال إذناً من المعتمد بأن يصحب «الراشد» ولده ليمرن على الحرب وقيادة الجيوش . وما كان المعتمد ليمنع

ابنه عن ابن عمار فما تعود أن يمنع عن ابن عمار شيئاً حتى وإن كان ابنه ...

واتفق المعتمد مع ابن عمار أن يلاقيه في مرسية ، وضربا لذلك موعداً ، وقال المعتمد لابن عمار إنه سيصحب ابن شقيق ريمون معه إلى مرسية ليسلمه من ثم إلى عمه .

خرج الجيش إذن وقائده الراشد بن المعتمد شكلا ، وأميره في الواقع هو ابن عمار . وكان ابن عمار فرحاً أن وصل إلى ما قدر لنفسه أن يصل، فابن المعتمد معه ، ووعد المعتمد بأداء المبلغ وعد مؤكد موثق .

وما هي إلا أيام حتى اتحد جيش ريمون وجيش المعتمد ... وأرسل ابن عمار رسوله بذلك إلى المعتمد ، ووعد ريمون أن المبلغ سيصل فور عودة الرسول من إشبيلية ...

وفي انتظار الرسول زحف الجيشان على ولاية « مرسية » ، ولكن أيام الزحف طالت ... أو أن ريمون في الواقع شاء لها أن تطول ؛ فإن المال لم يكن قد وصله بعد ، وهو لا يريد أن يفقد المال والرجال في وقت معا .

وكان المعتمد في طريقه إلى مرسية ليلاقي ابن عمار كما اتفقا ، وجاءه الرسول من ابن عمار ينبئه أن الجيشين قد اتحدا وأنه لم يبق غير أن يؤدي المعتمد المال ... ولكن إخراج المال عسير في كل وقت ،

وما كان المعتمد ليعرف خطر تأخره رغم تحذير ابن عمار ... فإن ابن عمار لم يبن لتحذيره عن غاية ... تراخى المعتمد فى أداء المال ... ولعله أزمع فى نفسه أن يؤدى هو المال بيده حين يصل إلى مرسية .

وما كانت هذه الفكرة لتصل إلى ذهن « ريمون » الذى رأى أن تأخر المال دليل على شر يبيت له ، ورجح لديه أن ابن عمار خدعه ، وكبر عليه أن يخدع ، فما أسرع ما أمر جيشه أن ينسلخ عن جيش المعتمد ... وحين حاول ابن عمار أن يستمهله أمر بالقبض عليه وعلى الراشد ابن المعتمد معاً ... وحاول الجيش ... جيش المعتمد أن يذود عن أميريه ولكنه ما لبث أن هزم .

تم هذا جميعه والمعتمد فى طريقه ــ ما زال ــ إلى مرسية يبنى فى نفسه الآمال الكبار عن مدينة جديدة يضمها إلى ملكه سيجدها مفتحة الجوانب له ولحاشيته . ثم ما يلبث ذهنه أن يأخذ به إلى ابن عمار فيشكره فى نفسه أن مهد له هذا الفتح المبين ، وما أكثر ما يشكر المعتمد ابن عمار فى نفسه .

وأراد المعتمد أن يطيل الأمد لهذه الفرحة التى تغمر نفسه وهو فى طريقه إلى مدينته الجديدة ، فهو يبطئ فى السير ... فما يرى خميلة إلا وقف لديها ، وما يرى وادياً بات فيه ليلة أو أكثر ، وما زال كذلك حتى بلغ ضفاف « الوادى اليانع » وكان وصوله فى موعد فيضان النهر فأقام لديه حتى ينحسر الفيضان فيعبر النهر .

ولكنه لم يكد يضرب الخيام حتى شق الماء إليه بقية جيشه الهزيم يصحبهما فارسان من فرسان ريمون ألقيا إليه النبأ جميعه ، فانشطر فؤاده حزناً على ولده الواقع فى أسر . وحاول أن يخفف من بعض حزنه فوضع ابن أخى ريمون فى الحديد . ولكن هيهات ما كانت نفسه لتهدأ بمثل هذا .

حينذاك فقط عرف المعتمد لماذا أوصاه ابن عمار أن يؤدى المال فى الموعد ، وعرف لماذا اصطحب ابن عمار ولده ... عرف كل شىء ولكن لات حين ... فما يغنيه اليوم أسفه وما يغنيه اليوم غضبه على ابن عمار .

يعود المعتمد إلى إشبيلية ، وتصيبه وجمة تظل رانية عليه عشرة أيام لا يدرى من أمر نفسه أمراً ... ولكن ابن عمار الذى ألف الصعاب وعركها كان سريع البديهة حاضر الذهن فما أسرع ما يلجأ إلى أحد أمراء الأندلس من أصدقائه ، ويرسل إليه أنه لائذ به فيتشفع هذا الأمير لدى ريمون فيفك إسار ابن عمار ويبقى على الراشد ابن المعتمد حتى يضمن وصول المال .

ويقصد ابن عمار إلى المعتمد يكاد يلوى به الخوف . ولكنه لا يضعف إليه بل يقصد إلى إشبيلية ، وحين يصل إلى أبواب القصر يعاود قلبه طائف خوف أن يكون المعتمد شديد الغضب عليه . فيترك القصر إلى بيته ومن هناك يرسل إلى المعتمد قصيدته الضخمة :

أأسلك قصداً أم أعوج عن الركب ... فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى ... فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
إذا انقدت فى أمرى مشيت مع الهوى ... وإن أتعقبه نكصت على عقبى[1]
على أننى أدرى بأنك مؤثر ... - على كل حال - ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى ... وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب
حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه ... وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئاً فيه بغى لطالب ... يضاف به رأى إلى العجز والعجب
سوى أننى أسلمتنى لملمة ... فللت بها حدى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به ... ترينى بعدى عنك آنس من قربى
أما إنه لولا عوارفك التى ... جرت جريان الماء فى الغُصُن الرطب
لما سمعت نفسى ما أسوم من الأذى ... ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة ... وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
فإن نفحتنى من سمائك حرجف ... سأهتف يا برد النسيم على قلبى

وهكذا أنشأ ابن عمار قصيدته تتسابق فيها السياسة مع الشعر فلا تدرى لأيهما السبق ، فهو يمهد بالاعتذار والتودد والتخوف ، وهو يذكر بالحب والصداقة ، وهو يوحى إلى المعتمد أنه صافح مؤثر ما

(١) يقصد أنه إذا اتبع القلب قصد إلى المعتمد ، ولكنه إن فكر قليلا تخلف ونكص على عقبيه .

يزحزح كرب ابن عمار .. ثم هو فى لباقة معجزة يحمل المعتمد العبء فيما وقع بل هو يزيد فيعتب عتباً رقيقاً فيذكره أنه أسلمه لملمة فلت سيفه وحطمت سلاحه . ولا ينسى ابن عمار أن يقول إنه لم يأت وزراً وأنه ما فعل إلا ما يظنه الخير ، وأنه ماجاء شيئاً فيه بغى ولا ظلم . وبعد هذا الدوران السياسى البارع يعود فيستمنح الرحمى ويسأل السقيا من الصفح الجميل . والمعتمد — قبل — شاعر يصل القصيد إلى قلبه أسرع ما يصل ويفهم الخافى منه على أوضح فهم ، فهو يحس ما فى قصيدة ابن عمار من خشية واعتذار وتذكير بصداقة ، ويحس أيضاً ما فيها من توجيه اللوم المهذب مشفوعاً بالعتاب . ثم يمس قلبه بعد هذا طلب الصفح ، وتدمع عينه حين يعجب ابن عمار من الأيام فيما قضت به ، فأرته البعد عن المعتمد آنس من القرب إليه ، فلا يملك نفسه أن يتناول قرطاساً ويكتب به إلى ابن عمار :

لدىّ لك العتبى تراح من العتب ... وسعيك عندى لا يضاف إلى ذنبى
وأعزز علينا أن تصيبك وحشة ... وأنسك ما ندريه فيك من الحب
فدع عنك سوء الظن بى وتعده ... إلى غيره فهو الممكن فى القلب
قريضك قد أبدى توحش جانب ... فراجعت تأنيساً وعلمك بى حسبى
تكلفته أبغى به لك سلوة ... وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

وهكذا جاء الصفح أروع وأجمل ما يكون الصفح ، بل إنه ليزيد فيعترف بالخطأ منه ، حتى إذا فرغ ما يجيش بنفسه نحو اعتذار ابن

عمار عاد إلى حزنه المقيم ، ذاكراً لابن عمار أنه لم يكتب هذا الشعر على سجية مواتية ، وإنما هو يتكلفه تكلفاً يبتغى به سلوة لوزيره وصديقه ، فما كان لمشترك اللب الحيران القلق على ولده أن يكتب الشعر أو يعانيه .

يهدأ روع ابن عمار ويقصد إلى المعتمد فيلاقيه وقد بدت عليه علائم فرح يغشيه الحزن ، ولكن ابن عمار يسرع فيدبر الأمر والمال الذى يطلبه ريمون ويرسله إليه ليفك ابن المعتمد من أسره ، ولكن ريمون يطمع فلا يقبل أن يفك الأسير بالآلاف العشرة التى انتهى إليها الاتفاق ، وإنما هو يزيدها إلى ثلاثة أضعاف ، فيطلب ثلاثين ألفاً من خالص الذهب .

وحين يبلغ هذا الطلب مسمع المعتمد ينشق قلبه من الغيظ والإشفاق على ابنه ، فإن هذا القدر من المال لم يكن موجوداً لديه ، وإنما الموجود لديه هو ابن عمار رجل الملمات .

ولا يطول التفكير بابن عمار ، بل هو يأمر فتضرب مسكوكات جديدة مزيفة ليس فيها من الذهب إلا القليل النادر الذى يكفى ليجعل ريمون يظنها ذهباً ، وما هى من الذهب إلا فى اسمها .

وتجوزالحيلة على ريمون فيطلق الراشد من أسره ، ويعود إلى أبيه فرحاً إنه كان ذا أهمية ، غير شاعر بما كان فى نفس أبيه من ألم وحسرة وخوف... ويعود ابن عمار إلى معتمده صديقين أخلص ما

تكون الصداقة ، فرحين بحيلتهما التى خالت على ريمون يوهم كل منهما الآخر أن النصر كان فى جانبهما . فهكذا النفس إن رامت أمراً كبيراً ولم تنل منه إلا القليل ، أو ما هو أقل من القليل ، حاولت أن تقتنع أن ما نالته كان النصر مؤزراً ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

١١ ـ قمة المجد

لم يكن ابن عمار ليغبى عن فهم الأمر فهو على يقين أنه قد هزم ، ولكن لا بد له أن يظهر للمعتمد أنه انتصر حتى يهدأ طائره وتطمئن نفسه ... أما ابن عمار فإنه يعلم الحق من الأمر ، ولكنه لم ييأس إلى الهزيمة بل إنه ليصر في بعيد نفسه أن ينال مرسية . وقد خشى ابن عمار أن يظهر إصراره هذا للمعتمد فيغضب ، فأخذ يعمل وحده مستخفياً مرسلا الرسل إلى مرسية متنطساً أخبارها . وقد خشى ابن عمار أن يعرف المعتمد بما يفعله ، فلم يجد وسيلة خيراً من الإغراق في الخمر والتظاهر بهذا الإغراق ما وسعه التظاهر ، حتى تناقل الناس عنه ذلك وحتى بلغته قالة الناس ، فإذا هو ينظم أبياتاً ثلاثة يكتبها فلا يظهرها لغير المعتمد ، حتى يثق المعتمد أن ابن عمار قد عاد إلى ما كان عليه من خمر وشعر بعيداً عن السياسة وطموحها :

نقمتم على الراح أدمن شربها وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مجد

ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى سواى ، ومن أعطى كثيراً ولم يكد

فديتكمـــو لم تفهمـــوا السر إنمـــا قليتكموا جهـدى فأبعدتكم جهدى[١]

يظهر ابن عمار المعتمد على هذه الأبيات مبدياً فيها كرهه للناس ، ولا يخشى أن يغضب عليه المعتمد ، لأنه بإظهارها له يستثنيه من هؤلاء الذين قلاهم فأبعدهم . فقد كان ابن عمار يعلم أن هذه الأبيات لا بـد واقعة فى يد المعتمد ، وخشى أن يظن نفسه ضمن هـؤلاء النـاس ... فابن عمار يسارع بقراءتهـا عليـه لهـذا جميعـه ، وليفتـح للمعتمـد بابـاً يقول فيه الشعر بعد أن ثاب إليـه ولـده فعـاد إليـه لبـه غير مشـترك ، فعساه إذن أن ينشغل بمعالجة الشعر عن متابعة ابن عمار .

ويفرح المعتمد بعودة ابن عمار إلى الشـعر والخمر ، ويفـرح أيضـاً ببغضه للناس فإنه بهذا سيفرغ له فيرتـاح نفسـاً ويهـدأ خـاطراً ، فقـد كان يخشى طموح ابن عمار فهو يعلم أن آمالـه لـن تقـف بـه إلى حـد ينتهى إليه ... وهو يعلم أن آمال ابن عمار هذه محفوفة بالأخطار فهـى تمتد إلى الفتـوح الجديـدة وإلى الممـالك بأكملهـا . وكـان لا بـد لفتـح الممـالك مـن الجيـوش والأمـوال والرجـال ... وكـان لا بـد أيضـاً أن يتعرض ابن عمار فى هذه الفتوح إلى الأخطار المحدقة ، وهو لا يكتفـى بأن يقدم نفسه بل هو يزيـد فيحيـط أبنـاء المعتمـد أنفسـهم بمـا يخشـاه المعتمد عليهم ...

---

(١) قليتكم أى كرهتكم شديد الكره ، فهو يباعد ما بينه وبينهم .

كان المعتمد يعلم هذا جميعه ، وكان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يرفض مطلباً لابن عمار ، فهو يخشى أن تظل هذه الآمال تداعبه فيطلب الجيوش والأموال ، ويضطر المعتمد إلى أداء هذه المطالب وهو كاره وإنما يؤديها حباً لابن عمار لا لشيء آخر ... كان المعتمد يتمنى أن يفتح الممالك وأن تنضم إلى ملكه ، ولكنه يريد ذلك بغير عتاد ولا مشقة ، فإنما لا يزهيه من هذا الاتساع إلا أن يقول الشعر ويفخر بمجده ومجد وزيره ... أما إذا كانت الفتوح تكلفه عنتاً من أمره ، فبحسبه المجد الذى تم له وهو غنى كل الغنى عن فتوح أخرى .. وهكذا فرح المعتمد أن ابن عمار عاد إلى الخمر والشعر وأغضى عن آماله الواسعة ...

ويحس ابن عمار بهذه المعانى التى تدور بنفس المعتمد ، فينكب على الشعر والخمر متحيناً الفرصة ليعود إلى ما كان يطمع فيه ، واثقاً أن المعتمد لن يخذله ...ويزيد ابن عمار من إظهار ميله هذا للخمر ومجالس الغناء ، حتى إنه لا يكتفى بتلك المجالس التى يفسحها له المعتمد بل هو يقبل دعوةً من دعاه إلى مثلها ، فهو يقصد إلى بيوت خاصة أصدقائه فيشرب ويسمع ، ويبلغ هذا المعتمد فيشتد يقينه أن ابن عمار لن يعود إلى السياسة أبداً .

وقد حدث يوماً أن أرسل إليه أحد خاصته يدعوه إلى ليلة من تلك الليالى ، وكان هذا الصديق شاعراً فكتب إلى ابن عمار يقول :

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت فى ودى مسراً ومعلناً
فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار لقلت لها أنا
فإن حالت الأيام بينى وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

ووصلت الرقعة إلى ابن عمار وهو فى زاوية من بيته يتسقط أنباء مرسية من عيونه بها فلم يستطع أن يترك هذا الأمر الجليل من أجل إتقان تظاهره ، فأغضى عن الدعوة وظل ليلته فى شغل عنها خطير ، حتى إذا طلع الصبح كتب إلى هذا الصديق يقول له :

هصرت لى الآمال طيبة الجنى وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنا
وألبستنى النعمى أغض من الندى وأجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها فبت سميراً للسناء وللسنا
أعلل نفسى بالمكارم والعلا وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل[1] ذكرك كلما تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لأوسعتنى قولا وطولا كلاهما يطوق أعناقاً ، ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى تناثر فيها الطبع ورداً وسوسنا

وهكذا وفق ابن عمار بين التظاهر بالمجون وبين العمل الجليل الذى يقوم به ، ولكنه فى هذه الليلة كان قد سمع أنباء ضخاماً ، وكان لا بد له أن يتهيأ للعمل بعد أن طال به الهجوع إلى الخمر والغناء والرقص .

---

(١) التمويل : الإكثار .

كانت الأنباء تقول إن مرسية قد حان قطافها ، ولكن ابن عمار لم يشأ أن ينقلب فجأة أمام المعتمد من مخمور لاه إلى رجل عمل ... فهو يتقدم إلى المعتمد ليتحدث عن ولده الأمير الراشد الذى أصبح أميراً على قرطبة . ثم هو يطيل من الحديث عنه ليثير شوق المعتمد إليه حتى إذا وصل إلى غايته ، قال للمعتمد إن الأمير أرسل يطلبه ليقضى عنده بعض ليلة يسرى عنه فيها ، فيفرح المعتمد لإخلاص ابن عمار ويسأله أن يبلغ تحياته إلى ابنه .

ويذهب ابن عمار من فوره إلى الراشد بقرطبة ويجلس إليه يروى له من شعره وشعر غيره ، حتى إذا دارت الكأس وانتشى الراشد نظم ابن عمار أبياتاً في جلسته تلك يقول :

ما ضر إن قيل إسحاق وموصله ... ها أنت أنت وذى حص وإسحاق

أنت الرشيد[1] فدع ما قد سمعت به ... وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك ... داركها مشعشعة ... واحضر بساقيك ما قامت بنا ساق

تمتد الجلسة إلى الصباح والجالسون لا يحسون بليل ينحسر ونهار يشرق ، حتى يأتى خادم فيؤذن سيده أن الإصباح قد أقبل فإذا ابن عمار ينطلق ناظماً موجهاً كلامه إلى الخادم ، والخادم مبهوت لا يفهم شيئاً ممايلقى إليه :

---

(١) يقصد بهذا المقابلة بين الراشد والرشيد ، وقد كان الراشد يدعى بالرشيد أحياناً .

« ليلة ضمنت معانى السرور وأضاءت بنور وجه الأمير
وغدا الليل كالضحى بمحيا ه وبالبشر غامراً والحبور
ليلة كلها صباح وضيّ أين منه نور الصباح المنير
أتقول الصباح ويحك يا أحمق إن الصباح وجه الأمير[1]

وهكذا مكث ابن عمار لدى الراشد يظهر أنه يسليه وهو فى الواقع يستطلع أنباء مرسية التى كانت قريبة إليه ، حتى إذا علم أن الوقت قد حان أرسل إلى المعتمد يخبره أن مرسية ثائرة على حاكمها « ابن طاهر » ، وأن زعماءها قد كتبوا إليه يريدون جيشاً من المعتمد يفتحها . ويلح ابن عمار فى خطابه ولا يفوته أن يذكر أن ليس ثمة رهينة ولا اتفاق فليس ثمة خشية ... ومرة أخرى يصدق المعتمد أقوال ابن عمار فيرسل الجيش على أتم أهبة ، ويتولى ابن عمار قيادة الجيش ويأخذ سبيله إلى أقرب حصن وهو حصن « بلج » وكان زعيم الحصن رجلا يدعى « ابن رشيق » ما إن يسمع بقدوم ابن عمار حتى يخرج إليه ليستقبله ويدعوه للنزول فى قصره ، فيقبل ابن عمار الدعوة ويفسح له الضيف مكاناً رحيباً ويسكب عليه من الحفاوة والتكريم ما لم يكن ابن عمار ينتظره .. وامتحن ابن عمار « ابن الرشيق » فعرف أنه يستطيع أن يثق به فحادثه فى أمر « مرسية »

---

(١) هذه الأبيات لم يعثر عليها منظومة ، ولكن معناها ورد فى أصول إفرنجية وقد تفضل بنظمها الأستاذ العوضى الوكيل .

وطريق فتحها ، فإذا ابن الرشيق على أتم معرفة بحالة مرسية وبالوسيلة التى تصل بهما إلى الفتح . وهكذا وجد ابن عمار عوناً من حيث لا يحتسب ، وما هى إلا بعض الساعة حتى كانت حامية حصن بلج تحت قيادة ابن رشيق ، قد مشت مع جيش ابن عمار فى طريقهما إلى مرسية .

كانت بلدة « مولا » هى طريق المؤن إلى مرسية وليس غيرها من طريق ، فحاصرها ابن عمار وابن رشيق حتى وقعت فى أيديهما ، فأصبحت مرسية فى حال من الضنك شديد ... وفرح ابن عمار بفتحه هذا ولم يطق صبراً ... فترك ثلة قليلة من فرسانه فى مولا وسارع إلى المعتمد ليزف إليه البشرى وليمحو أثر الهزيمة الأولى وليتقبل من مولاه التهنئات ...و... ولشيء آخر يرجو مولاه أن يحققه له ... إنه يريد أن يكون حاكماً على مرسية إن هى وقعت له ... وما كان المعتمد ليمنع عنه مرسية أوغيرها فهى له ...

وتلقى ابن عمار أنباء من عونه ابن رشيق يقول فيها إن وجوه مرسية من ذوى السطوة والسلطان قد خرجوا إليه يسألونه أن يأذن لهم أن يعاونوه فى فتح مرسية ، وطلبوا إزاء ذلك بعض المال والهدايا . ولا ينتظر ابن عمار حتى يستأذن المعتمد بل هو يرسل إلى ابن رشيق أن اقبل ما يعرضون ، ثم هو يلتفت إلى من معه فيقول « إن هو إلا يوم أو بعض يوم حتى توافينا الأنباء بفتح مرسية » .

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى فتحت مرسية أبوابها بأيدى الخونة الذين ما لبثوا أن مدوا أيديهم هذه ليتلقوا بها الهدايا والأموال .

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى كان ابن عمار فى مرسية ومعه الكثير العديد من الهدايا الفخمة الجميلة ، فإن أملا ضخماً فى حياته قد تحقق وما أهون ما يبذله في سبيله وإن غلا ....

لم يكن ابن عمار قد تهيأ لدخول مرسية بموكب فخم ، فكان دخوله لها على غير انتظار من أهلها . ولكنه فى صباح وصوله أعد لنفسه استقبال الملوك الغزاة الفاتحين ، بل إنه لبس مثل ما يلبس الملوك ، فوضع على رأسه تاجاً كتاج المعتمد الذى يتخذه حين يجلس إلى استقبال .

وكان « ابن طاهر » حاكم مرسية المعزول قد استكان إلى كسرة من بيته يبكى ملكه الضائع ، وأراد ابن عمار أن يبدو لأهل مرسية كريم النفس عف الخصومة ، فأرسل إلى ابن طاهر بضعة حلل فاخرة ليختار منها ما يريد هدية خالصة من ابن عمار . ولكن ابن طاهر أبى أن يجود عليه ابن عمار الذى يعرفه ويعرف خرجه وحماره وأخلاق ثيابه ... ولم يرد ابن طاهر أن يرد الثياب دون أن يخز ابن عمار وخزة تريح بعض ما فى نفسه ، فإذا هو يقول لمن يحمل إليه الحلل ....

« ارجع إلى مولاك ابن عمار ، فقل له : إن ابن طاهر لا يريد من الثياب غير جبة طويلة خلقة من خشن الصوف الناحل ،وغير قلنسوة

قذرة ، فإن سألك مولاك عنهما فقل له : إنك أنت أعلم الناس بهما » .

وعاد الرسول يحمل الحلل والرسالة ... وأحس ابن عمار وخزة الحديث ، ولكنه لم يرد أن يفسد فرحه بمثل هذه القالة فكتمها فى نفسه وقد أزمع ردها حين يفرغ إلى ابن طاهر ... ثم التفت إلى أفراحه القائمة ... لقد أصبح ملكاً .... فإن مرسية لم تكن مدينة فحسب كبلدته « شلب » ولكنها كانت مملكة تتبعها مدن وولايات ...

إنها القمة يابنَ عمار ... فانظر إلى قدميك واحذر ... احذر ... فما وراء القمة غير الهاوية .

١٢ ـ بين مرسية وإشبيلية

أقام ابن عمار بمرسية حاكماً مطلق اليد يأمر فأمره تنفيذ ، ويشير فإشارته أمر ، فأصبح بعد أن لبس التاج واستبد بالسلطان لا يحس بالمعتمد في شيء ، فأخذ يصدر الأوامر ويمهرها بخاتمه هو لا بخاتم المعتمد ، وأمر فأنشئ جامع وأطلق عليه اسم نفسه دون المعتمد .

وتبلغ هذه الأنباء آذان المعتمد فيقول قول كثير :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

ولكن ابن عمار لا يرعوى ولا يلتوى به فضل من المعتمد يطوق عنقه ، وكان ابن عمار في ذروة مجده حين نما إليه أن فئة ممن لا يزالون على ولائهم لابن طاهر يدبرون أمراً فيما بينهم ، وأنهم حادثوا ابن طاهرأن يتزعمهم ، وحينئذ تذكر ابن عمار ما كان قد نسيه من أمر ابن طاهر ، وتذكر أنه اغتمزه فذكّره بملبسه ، فأمر ابن عمار بابن طاهر فسجن بقلعة يطلق عليها قلعة (منتاجو) .

وكان لابن طاهر صديق اسمه (ابن عبد العزيز) وكان حاكماً على (بلنسية) القريبة من مرسية ... فأرسل هذا الصديق إلى ابن عمار يرجو أن يطلق ابن طاهر ، ولكن ابن عمار أبى واستكبر ، فقد خشى أن يخرج ابن طاهر من سجنه فيؤلب عليه الأعداء .. فلما يئس ابن عبد العزيز من ابن عمار ، أرسل يستنجد بالمعتمد فى إشبيلية ، وألح عليه حتى أرسل المعتمد إلى ابن عمار يأمره بإطلاق أسيره . ولكن ابن عمار لم بلتفت إلى أمر المعتمد ، كما لم يلتفت إلى رجاء ابن عبد العزيز وأبقى على ابن طاهر فى سجنه .

واغتاظ المعتمد من ذلك ... وكان الذين حوله فى القصر قد أوغرت صدورهم على ابن عمار ، فاهتبلوا فرصة غضب المعتمد ، وأخذوا يكيلون التهم لابن عمار ، يتزعمهم فى ذلك أبوالوليد بن زيدون ابن شاعر الأندلس الأشهر ابن زيدون ، وكان آنذاك ذا نفوذ فى قصر المعتمد يلى نفوذ ابن عمار ، وقد أحب ألا يلى هو أحداً فينفرد وحده بجاه الملك وجبروته . فحق له إذن أن يقدح فى ابن عمار ويتسقط مظاهر خروجه على المعتمد ، ويرويها له مضيفاً إليها ما يزيدها بشاعة حتى فاضت الكأس بالمعتمد . ولكنه أراد أن يجرب تجربة أخيرة قبل أن يقطع صداقة حياته ، فأراد أن يرسل إلى ابن عمار رسولا آخر يأمره أن يطلق سراح ابن طاهر ، ولكن الأخبار وافته أن ابن طاهر قد تمكن أن يهرب من قلعة منتاجو وأنه قصد إلى ابن

عبد العزيز ونـزل بقصره ضيفا كريما ، وكانت هذه الأخبار حقا كلها ... ونزلت على المعتمد برداً وسلاما فقد كفته مؤونة التجربة ، واستراح وأوهم نفسه أن ابن عمار قبل أن تدبر هذه المؤامرة تحت عينيه ، فيهرب الأسير بدلا من أن يطلق فيحفظ بها على نفسه كرامتها أمام من يحكمهم ويطيع فى الوقت ذاته أمر المعتمد إليه ...

هكذا اعتقدت نفس المعتمد الصافية ، ولكن الحقيقة أن هروب ابن طاهر والتجاءه إلى ابن عبد العزيز نزل على ابن عمار نزول الصاعقة ، فأصبح كالمجنون يبحث عن وسيلة ينتقم بها من ابن طاهر وابن عبد العزيز معاً . حتى إذا ضاقت لجأ إلى سلاحه القديم الذى أوصله إلى ما هو عليه الآن ، وأخذ يكتب القصائد الطوال فى هجاء ابن عبد العزيز . ولم يكن ابن عمار كريماً فى هجائه ، بل كان ثائراً لا يدرى ماذا يقول ، فكتب يهجو زوجة ابن عبد العزيز ويحرض أهل بلنسية أن يثوروا بصاحبهم .

وبلغت هذه القصائد مسامع المعتمد فعرف أن حسن ظنه بابن عمار كان أوهاماً ، واغتاظ أن يكتب ابن عمار هذه الأبيات فيشهر للملأ أنه كان يعارض المعتمد فى إطلاق ابن طاهر . وغاظه أن يتهجم ابن عمار وهو من هو على أقدار أمثال المعتمد من الملوك الكابرين ... اغتاظ المعتمد وأراد أن يحارب تدبر للأمور ، بل أنسته كل ما سكبه

عليه المعتمد من فضل .. لقد أخذ المعتمد بعد صداقة خمسة وعشرين عاماً لابن عمار ، ينظم قصيدة فى هجاء ابن عمار .

وبلغت القصيدة ابن عمار وكان فى أوج مجده ، وكان الذين حوله يوهمونه أنه الفرد العلم ، فتمكنت نشوة المديح من رأسه وأنسته ماضيه وعقله وكياسته ، وأنسته كل ما تعلمه من تدبر للأمور ، بل أنسته كل ما سكبه عليه المعتمد من فضل . بل نسى أن هذا المديح الذى يسمع هو نتيجة لفضل من أفضال المعتمد عليه ، وخيل إليه أنه هو صاحب الفضل على المعتمد ، وأنه هو الذى أدى إليه من الخير ما لم يستطع أحد أن يؤديه له ... نسى ابن عمار كل هذا وخيل إليه أنه غدا ملكاً مثل المعتمد ، وقابل قصيدة الهجاء من المعتمد بقصيدة هجاء من ابن عمار . ولم لا وكلاهما شاعر ؟

ولكن ابن عمار لم يكن فى مثل شجاعة المعتمد ، فهو فى عميق نفسه يحس — ما زال — بأنعمه ، وهو يعرف تماماً الفارق بين المفضل والمفضول ، فهو يلقى القصيدة فيمن ظنهم خاصته ، وكان من بينهم يهودى من عيون ابن عبد العزيز استطاع أن ينال ثقة ابن عمار ، فما إن سمع القصيدة حتى أبدى إعجابه الضخم بها ، ثم طلب خمراً ليستمع إليها مرة أخرى وهو مخمور فتزداد نشوته . وجاءت الخمر فأخذ اليهودى يشرب حسواً فى إقلال ورزانة بينما يعطى ابن عمار

الكؤوس دهاقاً مليئة حتى دار رأس ابن عمار ، فسرق اليهودى القصيدة منه مكتوبة بخط يمينه وأرسل رسولا إلى ابن عبد العزيز فى مرسية . وما لبث هذا أن أرسلها إلى المعتمد فى إشبيلية ، وقرأ المعتمد .. ولأول مرة بعد خمسة وعشرين عاماً من صداقته لابن عمار ، قصيدة يهجوه فيها ابن عمار ... بل إنه لم يهجه وحده وإنما زاد فهجا « اعتماد » وسخر من حب المعتمد لها ، وزاد فذكر بنيّاته وأهل بيته بشر .

سفر العداء إذن وصرح الشر وتقطعت السبل بين الصديقين ، فما لإصلاح من سبيل . وملأ الغيظ قلب المعتمد فأخذ يدبر للانتقام .

ولها ابن عمار عما يدبر له والتفت إلى ما يحيط به من مجد وقد استقر لديه أن الأمور قد أسلست قيادها له .

نسى ابن عمار أن الذى فتح له مرسية يستطيع أن يثيرها عليه ... نسى ابن رشيق صاحب حصن بلج الذى عاونه ... نسيه وهو فى أوج مجده وفى غمرة ملكه فما التفت إليه وما أناله مما كان يطمع شيئاً ... ويل المديح أنه يعمى أشد الناس ذكاء عن أبسط الأمور وأقربها إلى الذهن ... لقد استطاع أن يعمى حتى ابن عمار فما عاد يلتفت إلى تلك الأشياء الدقيقة التى ما كانت لتفوت عليه قبل أن يصل إلى الملك .

لقد وجد ابن رشيق ألا غناء عند ابن عمار ، وعرف بقصيدة المعتمد ثم بقصيدة ابن عمار ، فعرف أن المعتمد يريد الانتقام ، فشد إليه الرجال وعرض بين يدى الصديق الذى يريد أن ينتقم لصداقته ، والزوج الذى يريد أن ينتقم لزوجه ، والأب الذى يريد أن ينتقم لولده ، وصاحب الفضل الضائع الذى يريد أن ينتقم لفضله ... عرض بين يدى المعتمد وسيلة الانتقام .

كان ابن عمار ما يزال في بلهنيته ليس يدرى بأمر أعدائه الذى ألبهم هو على نفسه .. خيل إليه أن ابن عبد العزيز وابن طاهر لن يمدا إليه يدا بشر ، وخيل إليه أن ابن رشيق لن يهم به فهو صديقه . وحسب ابن رشيق فخاراً أن يكون صديقاً لابن عمار .

خيل إليه هذا كله فانصرف إلى مادحيه ، وبينما ابن عمار فى هالة من صحابته إذ سمع أصوات ضجيج وصخب وصراخ تتقارب نحو قصره ، فقام إلى الشرفة فوجد جموعاً حاشدة تدنو ، وما هى إلا لحظات حتى استبان صراخهم ... لقد كانت الثورة به ... لقد جاء الجنود يطالبون بمرتباتهم ويهددون بالويل العظيم إن هم لم ينالوا ما يريدون ... أدرك ابن عمار حينئذ أنه وقع فريسة خيلائه . ويهم أن يلوذ بسهم أخير فيخطب الجموع أنه سيسأل المعتمد أن يرسل إليه

المال فيعطيهم رواتبهم ، ولكن قبل أن يفعل هتف به نائب الجنود من أسفل الشرفة :

ــ هيه ابن عمار ، أحسبت أن تقطع عنا رواتبنا ونسكت عنك ؟... هيهات ... لقد أقسمنا فيما بيننا قسماً غليظاً إن لم تسلمنا حقنا سلمناك للمعتمد من فورنا ... إلى المعتمد يا ابن عمار أتعلم من هو المعتمد اليوم ؟.

كان القول حاسماً ... نعم إن ابن عمار يعلم من هو المعتمد اليوم . إنه النقمة التي كانت خيراً ... وإنه الذل الذى كان مجداً ... وإنه النار التي كانت ندى ورحمة وبرًّا ... عجز ابن عمار الذى احتال على الملوك والوزراء والكابرين ... عجز عن أن يحتال على ثلة ليست من الملوك ولا الوزراء والكابرين ، وإنما هم أصحاب حق يطالبونه به ... مهما تكن الأيدى التي حركتهم قد ابتعثها الحقد والانتقام والبغض الشديد إلا أن هذا لا يغير من موقفهم شيئاً ... إنهم أصحاب حق يطالبونه به .

لم يبق أمام ابن عمار إلا أن يفلت بحياته ، فهو يتكلم لا ليدافع ولا ليطلب من القوم الريث فقد رأى منهم عزماً وإصراراً .. إنه يتكلم فلا يقول شيئاً إلا :

- أيها الجند ... إن هى إلا بعض الساعة حتى تكون رواتبكم بين أيديكم ...

ويدخل ابن عمار إلى القصر لا ليؤدى الرواتب فما كان بخزائنه شيء ، فلقد اشترى المديح الذى تهدى إليه بكل المال الذى كان لديه ... يدخل ليجمع ما يطيق أن يحمل ... ومن باب سرى يخرج ابن عمار من القصر فلا يراه الجنود ، ويظل مستخفياً حتى يخرج من مرسية جميعها إلى ... إلى الطريق .

سلام إذن يا قصر الملك ، وسلام أيتها الأحلام التى ما تحققت حتى انهارت . وسلام أيها المديح الذى ما قيل حتى هوى بالممدوح ... سلام على كل هذا وإلى .... إلى الطريق .

١٣ ـ إلى أين ..؟؟

حار ابن عمـار ... أيـن يـولى وجهـه ، وضـاقت بـه السـبل وطـال الطريق عليه مرة أخرى فذكر حماره ، وذكر أيامـه الأول ومـا تبعهـا ، وذكر صداقته للمعتمد ثم خيانته له ، وذكر ... وذكـر ... ثـم أخـذ يورد بذهنه كل الأصدقاء الذى أتيح له أن يعرفهم عساه أن يختار مـن بينهم من يلجأ إليه ... فكر فى ملوك الأندلس المسلمين الذين يعرفهـم أجمعين ، ولكنه خشـى أن ينصرفـوا عنـه بـل إنـه عـزف عـن الالتجـاء إليهم ؛ فقد كان فى قصر أعظمهم شأناً وأعزهم سلطاناً . . فعرف أنه لن يرضى بالأدنى بعد أن ترك مجد المعتمد وقصـوره ... وانتقـل ذهنـه على غير إرادة منه إلى ملوك الفرنجة فى الأندلس ... وفكر ... ريمـون صديقـه ولكنـه لا بـد قـد اكتشـف زيـف الذهـب الـذى أرسـل إليـه فدية ... ثم فكر فى الأذفونش .

أجـل الأذفونـش ، ولم لا ؟ ... لقـد تـرك أعظـم ملـوك الأندلـس العربية ، فما له لا يذهب إلى أعظم ملوك الأندلس الإفرنجية ... تذكر

الشطرنج ، ولكنه تذكر أيضا أنه أهداه للأذفونش ، وتذكر أن الرجل يقدره فيطلق عليه « رجل الجزيرة » وأن قصة الشطرنج فى ذاتها لدليل على ذكاء ابن عمار . وإن يكن الأذفونش هو ضحيته فيها إلا أنه سيقدر الذكاء – لا شك – لأنه رجل ذكى وسيقدر الولاء الذى عمل به ابن عمار من أجل المعتمد . وسوف ينتظر نفس هذا الولاء من ابن عمار له إذا عمل به من أجله ... وإن يكن ثمة غضب ما زال فى نفس الأذفونش فلا شك أنه سيكون غضباً هيناً غشت عليه السنون يستطيع ابن عمار ببعض كياسته أن يزيله .

واتجه ابن عمار إلى « ليون » عاصمة الأذفونش ، وألقى رجاءه ببابه ولكن ويح الأيام ... هيه ابنَ عمار ، لقد بدأت هبوطك إلى الهاوية فلات حين صعود ... لقد رفض الأذفونش إيواء ابن عمار وكان قد علم بكل ما حدث فى بلنسية فبده ابن عمار بقوله :

– أنت سارق يا ابن عمار ... سرقت الملك من ابن طاهر على يد ابن رشيق ، فليس ظلماً أن يسرق منك الملك بنفس اليد التى سرقته لك .

وخرج ابن عمار من ليون . ولم يبق له إلا أن يرتمى بأبواب الملوك العرب مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة لا يعرض شعراً يقوله خامل ذكر لا يعرفه أحد ، وإنما هو يعرض ابن عمار بتاريخه كله الذى لا

يجهله أحـد ... يعرض ابـن عمـار الوزيـر الداهيـة والسياسـى البـارع والقائد الصنديد .

يذهب ابن عمار إلى « سرقسطة » وهى مملكة أندلسية عربية يقـوم عليها أحد ملوك الطوائف يطلـق علـى نفسـه اسـم الملـك « المقتـدر » وكانت هذه المملكة هينة الشـأن صغـيرة الرقعـة ، ففـرح صاحبهـا أن يكون بين رجاله وزير المعتمد الأول ومن كان صديقه الأثير ... يـأوى المقتدر ابن عمار ويوليـه بعـض شؤون الدولـة ، ولكـن هـذه المملكـة الصغيرة التى تتضاءل لا أمام إشبيلية فحسب ، بل إنها لتتضـاءل أمـام مرسية مملكته .. هذه البلدة ... سرقســطة لا تتسـع لـه فهـو لا يطيـق العيش فيها فيزعم ابن عمار للمقتدر أنه لم يعد يطيق العيـش فـى زحمـة الناس . إنه يود لو أتيح له أن يذهب إلى مملكة بعيدة منقطعة عن الناس الذى كرههم جهده ، والذين يريد أن يباعدهم جهده . فيسأله المقتدر عـن المكـان الـذى يريـد فيجيبـه ابـن عمـار إنـه يتـوق أن يذهــب إلى « لاردة » التى يحكمها « المظفـر» أخـو « المقتـدر » . ويقبـل المقتـدر آسفا ، ويذهب ابن عمار إلى « لاردة » فيستقبله « المظفـر » أحسـن استقبال وينزله بأكرم مكان . ويفرح ابن عمار بما لقــى ، وتعـود إليـه بعض ثقته بنفسه . ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه العزلـة التـى فرضهـا على نفسه فيرجو المظفر أن يسمح له بالعودة إلى سرقسطة ، ويزعم له أنه اشتاق أن يرى أخاه « المقتدر » . ويصدق المظفر قوله ، كما كـان

المعتمد يصدق قوله ويأذن له بالذهاب ، ولكن ابن عمار يعرف وهو في الطريق إلى سرقسطة أن المقتدر قد مات وأن ابنه « المؤتمن » قد قام على الملك من بعده ، فيواصل طريقه كأن لم يسمع شيئاً . إنه يريد أن يذهب إلى سرقسطة لا يهمه إن كان عليها المقتدر أو المؤتمن أومن يكون .

ويصل ابن عمار إلى سرقسطة وينزله المؤتمن منزلة كريمة ، ويستشيره في أمور مملكته فيصرفها ابن عمار ، وكأنها شئون ضيعة صغيرة لا مملكة ذات ملك ووزير . ويضيق ابن عمار بتضاؤل أعماله ، فما هي مهما تعظم في سرقسطة بشيء يذكر إلى جانب أعماله في إشبيلية أومرسية أو حتى شلب

وتلوح لابن عمار فرصة يعمل فيها فيهتبلها ... فقد جاء إلى المؤتمن من يخبره أن أحد أصحاب القلاع التابعين لسرقسطة قد خرج عن طاعة المؤتمن ، فيعرض ابن عمار على المؤتمن أن يذهب هو لإخضاع هذا الخارج ، فيقبل المؤتمن فرحاً ويسأل ابن عمار :

- كم جندياً تريد ؟

- اثنين .

- أسألك كم جندياً تريد لتحارب القلعة ؟

- أريد اثنين - جنديين .

- ولكنك تمزح لا شك .

ـ بل أجدّ .

ولكن المؤتمن لا يصدق هذا القول ويأبى إلا أن يرسل جنداً كثيفاً ، فيصر ابن عمار على أن يكون جيشه مكوناً من اثنين ، حتى إذا طال النقاش وقفا عند أواسط الأمر ، فقبل ابن عمار أن يصحب كوكبة صغيرةً من الفرسان .

ويصل ابن عمار إلى مكان قريب من القلعة فيأمر الكوكبة أن تختفى وراء الجبال ، ويصطحب هو جنديين يقصد بهما إلى القلعة ثم ينادى ابن عمار على صاحبها المتمرد فيجيبه فيقول ابن عمار :

ـ هلا نزلت إلىّ أحدثك حديثاً قصيراً ؟

وينظر صاحب القلعة فلا يجد إلا ثلاثة أشخاص فلا يرهب منهم شيئاً ، وينزل إلى ابن عمار فيستقبله خارج القلعة ويأخذه بيده ليعود به إليها فإذا بالجنديين يطعنان الرجل طعناً متلاحقاً دراكاً ، فيسقط فى مكانه وقد فارق الحياة ، ويرى جنود القلعة ما حدث لقائدهم فتملك الخشية نُفوسهم ويستسلمون ، ويعود ابن عمار وقد نجحت حيلته ، ويستقبله المؤتمن والفرح يغمره ، فيذكر ابن عمار كيف كان يستقبله المعتمد حين كان يعود إليه بعد أن يوقع أعداءه فى الأشراك فتدمع عيناه ولكن لات حين ...

وثق المؤتمن فى ابن عمار بعد حيلته تلك ، وكان المؤتمن يفكر أن يحقق أمنية أبيه فيستولى على قلعة « شقورة » وهى قلعة حصينة لا

تتبع لسرقسطة وإن كانت قريبة منها ، فطلب إلى ابن عمار أن يستولى عليها بنفس الطريقة التى استولى بها على القلعة المتمردة . ولم يكن ابن عمار يدرى أن أهل هذه القلعة قوم أذاقهم هو مر العذاب فى مرسية ... ولم يكن يدرى أن الطريق إليها وعر لا يستوى ولا يعتدل ، ولكنه كان يدرى أنه يريد أن يعمل وكان يدرى أنه لا يطيق الخمول .

تزعم ابن عمار بضعة من الفرسان ، وكما فعل فى المرة الأولى فعل فى هذه المرة ، فأمر الجنود بالاختفاء واصطحب اثنين وعمد إلى القلعة لا يريم ، ونادى ابن عمار فلم يجبه أحد ، فاقترب ونادى فلم يجبه أحد ، حتى أصبح ملتصقاً بجدران القلعة ، فإذا حبل قد أحاط بوسطه وإذا هو معلق فى الهواء صاعد إلى أعلى لا يدرى من يجتذبه ، حتى بلغ نافذة للقلعة فأدخل منها وألقى إلى الأرض ، ثم عاجله القوم بالقيود فأحاطوا بها معاصمه وأقدامه ...

وقع ابن عمار أسيراً فى يد أعدائه وحاول من معه أن ينقذوه ، فحين رأوا مناعة القلعة أصبح كل همهم أن ينقلبوا إلى ذويهم سالمين فانقلبوا .

ماذا يفعل صاحب القلعة بابن عمار ... إنه يدخل عليه فيجبهه .

ــ ألم تر إلى نهايتك يا رجل الجزيرة ... ماذا تريدنى أن أفعل بك؟ ... لست من أهل السراء حتى أصطنعك لتقول فىّ شعر المديح ... ولست ذا ملك حتى أجعلك وزيراً ... نعم إنك وزير

حصيف لا شك أنك بضاعة رائجة يا ابن عمار ... سأعرضك فى سوق الملوك فمن يغلى الثمن كنت له .

فيجيبه ابن عمار والغضب آخذ منه كل مأخذ :

ـ ألا واللّه ما نلتنى إلا بالختل القذر ، ولا واللّه ما كنت لأمدح مثلك وإن كنت أكبر الملوك .

ـ أتتحدث عن الختل يا ابن عمار ؟... يا لك من جرىء وقح ... على أننى لن أقتلك كما فعلت أنت بصاحب القلعة ... بل أنا سأبيعك يا أخى إلى الملوك ... لتعود وزيراً كما كنت .. ألا تشكرنى إذن ؟

وخرج الرجل وترك ابن عمار .

لم تكن إجابة ابن عمار الجريئة عن شجاعة خالصة ، بل إنه أدرك أن الرجل يجد فيه بضاعة رائجة فأدرك أنه لن يمسه بسوء حتى يتمكن من بيعه بثمن كبير .

بقى ابن عمار فى سجنه وانسابت إلى ذهنه الذكريات ، وتطلع إلى القابل من الأيام فوجد نفسه يعود إلى أسوأ مما كان فى شلب يوم عاد إليها على الحمار ، فهو اليوم يباع كعبد رقيق وهو لم يكن عبداً فى يوم من الأيام .. نعم كان عبداً للتملق والخداع .. كان عبداً لرغباته ومطامحه ... كان عبداً للمديح الذى أحاط به ولكنه لم يكن عبداً فى سوق الرقيق ، فهو يقول دون أن يفارقه كبره :

أصبحت فى السوق ينادى علـى　　رأسـى بـأنواع مـن المـال
واللـــه ما جـــار على مالـه　　من ضمنـى بالثمـن الغـالى

ثم ينظر حوله فيجد حجرته فى قلعة شـقورة تلـك صغـيرة ، ويجـد القيد فى يديه وقدميه فتدمع عينه ، وينتظم البيتان فى ذهنه :

بؤســـى شـــقورة عنـــدى　　أربـى علـى كـل بوسـى[1]
فقـــدت هـــارون فيهـــا　　وظلـت أطلـب موسـى[2]

(١) البوسى : كنعمى وهى البؤس .
(٢) يعنى إنه فقد النصير إشارة إلى قوله تعالى ﴿ واجعل لى وزيرًا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى ﴾ وهو يطلب موسى أى الذى يتشفع له .

١٤ ـ سحيق الهاوية

ابن عمار فى السوق سلعة لمن يغلى الثمن ، والمعتمد ممن عرض عليهم الشراء ، فمن يشترى ويغلى ثم يغلى إذا لم يكن المعتمد ؟ .. إنه يشترى صداقة خمسة وعشرين عاماً ... إنه يشترى شبابه جميعاً ... شباب أمير شاعر ملك .. إنه يشترى نفسه فى أمتع فترات نفسه .. وماذا للشاعر الشيخ غير شبابه وشعر شبابه ؟... إن كل لحظة من شبابه لم يدر بها الفلك إلا وابن عمار قطب فيها ... لماذا لا يغلى المعتمد ... إنه يشترى فى ابن عمار مرآة أنضر ملاوة[1] من حياته .

ثم يشترى من بعد أبغض فترة فى حياته .. يشترى الصداقة الخائنة .. يشترى العهد المضاع ... يشترى الأخوة الخادعة ... يشترى من هدم الصروح الشوامخ من ثقته وحبه ووفائه ... يشترى ذلك

---

[1] الملاوة القطعة من الزمن .

الذى سود الدنيا فى عينيه ، فبعد آن كانت إشراقة حب وضياء وفاء أصبحت ظلام خيانة وليل خداع .

اشتراه المعتمد إذن وأرسل بابنه الراضى ليأتى به ، وأوصى ابنه أن يحذر من خداعه وأن يكثر عليه الأحراس ...

وأخذ الراضى صديق أبيه ، وسار الركب حتى بدت طوالع قرطبة ، فتذكر ابن عمار وما كان بحاجة إلى قرطبة ليتذكر ، فهو لا ينسى أبداً .. لا ينسى كيف فتح قرطبة هذه فى أول عهد المعتمد .. ولا ينسى كيف كان يدخل قرطبة بعد ذاك تحف به المواكب الضخام وترنو إليه العيون . والسعيد السعيد من يلمس حوافر خيله ، والسعيد الأسعد من يلم بطرف ردائه ، لا ينسى ابن عمار ... لا ينسى ..

وبلغت طوالع موكب الأسير ظاهر قرطبة فإذا هناك حشد كبير .. لم يجتمع لتحية ابن عمار .. ولم يجتمع لإكرامه .. وإنما جاء يشهد القمة تنحط إلى الهاوية ، والمجد ينحدر إلى الحضيض .

والناس للدنيا تبع ولمن تحالفه شيع

ونزل ابن عمار من فوق الحصان الذى كان يمتطيه ومشى إلى حيث يمشون به ... يا لسخرية الأقدار .. إنه سيركب حماراً .. حماراً مرة أخرى .. نظر ابن عمار إلى الحمار فلم يتمالك نفسه من الضحك رغم هذا الضنك الذى يحيط به .. حمار ... أبعد كل هذا السفر الطويل فى مدارج المجد وعليا المراتب يعود إلى الحمار .. ويح

الأقدار !.. بل إن الحمار ليشبه ذلك الذى سرق أو انسل فى إشبيلية عند قصر المعتضد .. إنه ليكاد يكون هو نفسه يحمل خرجاً كذلك الذى كان يحمله حماره . بل إنه ليكاد يكون نفس الخرج وإن كانت جنباته قد ملئت اليوم تبناً بدلا من تلك الكسرات التى كانت فيها .. عود على بدئه يرجع بل إلى شر من بدئه . لا بأس إذن فمن على ظهر الحمار صعد إلى القمة ، فعلى ظهر الحمار ينحدر إلى الهاوية .

لقد كان المعتمد هوالذى مهد سلم المجد لابن عمار فصعد ، وهو هو نفسه من يمهد له الطريق إلى الهاوية .. هو الذى أوصله وها هو ذا يعيده .. وعلى الحمار يعود .

ركب ابن عمار الحمار وهم بمسير . ولكنه رأى عن بعد رجلا يركب حصاناً يعدو إليه ناهباً الطريق نهباً .. فسارع ابن عمار ومد يده إلى عمامته ورفعها عن رأسه وألقى بها إلى الأرض ، وكان راكب الحصان قد وصل فوقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل ... فسأل ابن عمار واحدٌ ممن يحيطون به : ماذا فعلت حتى جعلت الرجل يقف باهتاً ؟ فقال ابن عمار :

ـ لقد كان هذا الراكب قادماً من عند المعتمد ليرفع عمامتى من على رأسى ويلقى بها إلى الأرض إمعانا فى تحقيرى والنيل منى ، فسبقته إلى ما يريد أن يفعله فبهت كما ترى .

ونظر السائل إلى راكب الحصان فإذا هو يؤيد ابن عمار فيما قال معجباً من ذكاء الوزير ودهائه ، وهكذا لم تتخل الومضة النافذة عن ابن عمار حتى وهو فى أحلك أوقات حياته .

سار موكب الخزى يطوف بأنحاء قرطبة . فلم يبق من أحد فيها إلا وقد رأى ابن عمار على مطيته الجديدة القديمة ، إلا المعتمد الذى كان فى قرطبة وأبى أن يرى ابن عمار ..

نعم ، ابن عمار الذى كان كل ما يخشاه أن يبعد عنه لحظة من زمن .. هو نفسه من يأبى رؤيته اليوم .. بل يأمر المعتمد أن يسير الركب إلى إشبيلية فيدخلها ابن عمار كما دخل قرطبة ، ثم يلقى به فى السجن .. فكان ما أمر به المعتمد واستقر ابن عمار فى السجن .

ومن هناك أخذ ابن عمار يستشفع بكل ذى أكرومة أن يطلب الصفح من المعتمد ، والمعتمد يزجر كل محاول فتنكسر على أبوابه الشفاعات ، حتى إذا ضاق بكثرتها نادى ابن عمار وذكّره ... ذكّره المعتمد بملابسه القذرة التى دخل بها القصر ... وذكّره بليلته الأولى بين شعراء القصر ... ذكّره بنفسه وزيراً فى شلب ... ثم أميراً لشلب ثم قائدا للجيش ... ثم ملكاً أو شبه ملك لمرسية .. ذكّره فما ألفاه ناسياً ... ثم ذكّره بخروجه عليه فى مرسية ... وذكّره بقصيدته التى هجاه فيها ... ذكّره فلم يلقه ناسياً ... فهب المعتمد فى وجهه .

ـ فماذا تريد إذن ... لقد أفقدتنى شبابى وهيهات أن يعود ... ألا لعن اللّه يوماً عرفتك فيه ، إذن لأبقيت لنفسى ذكرياتى نقية منك .

وعاد ابن عمار إلى السجن وأخذ يكتب إلى أصحابه أن يعاودوا الشفاعة وهو يكتب إلى أصدقائه ، ينظم أنّته شعراً عساها أن تريح بعضاً مما يجد ، فيقول لأحدهم :

أدرك أخاك ولو بقافية ... كالظل يوقظ نائم الزهر

فلقد تقاذفت الركاب به ... فى غير موماة ولا بحر

طاحت صحابته بلا سنة ... وتساقطوا سكراً بلا خمر

بمعارج أدت إلى جرد ... حتى من الأنواء والقطر

عال كأن الجن إذ مردت ... جعلته مرقاة إلى النسر

وحش تناكدت الوجوه له ... حتى استربت بصفحة البدر

متحير سال الوقار على ... مأوى العزيز وقد نصحت فإن

ملكت عنان الريح راحته ... يهمل فقد أبليت فى العذر

وأطعت أمر مضيع أمرى ... مستأثر بالحمد والشكر

واصلت خدمة قاطع سببى ... عطفيه من كبر ومن كبر

دع ذا وصلنا غير مؤتمر ... فجيادها من تحتها تجرى

وهكذا يبلغ البؤس بابن عمار حتى إنه ليبحث عمن يحادثه أى حديث ، ولو كان هذا الحديث مكتوباً .

ويلح ابن عمار فى رجائه ويرسل به إلى شتى الناس ، فيضيق المعتمد بكثرة الشفعاء فيه ، فيأمر أن تمنع عنه الأوراق فتمنع ...ثم يزيد المعتمد قسوة عليه فيخرجه فى الحفلات التى كانت تقام فى القصر ويجعل منه سخرية للجوارى والخدم ، فيبصقون فى وجهه ويفتنّون فى إهانته ، وابن عمار صامت ذاهل لا يدرى أفى حلم بشع هو ، أم فى حقيقة ملموسة ... هذه الطنافس ، هذه المقاعد ، تلك البسط ، هاته الثريات ، هذه الأقداح ، هؤلاء السقاة ، أولئكن النسوة ، إنه يعرف جميع هذا ... ويعرف أنه كان ريحانة هذا المكان ... أهكذا يفعل الدهر بأعدائه ؟ ويل لأعداء الدهر ... ويعود ابن عمار إلى سجنه شر ما يعود عائد إلى السجن .

وفى يوم يطلب ابن عمار ورقاً ويلح فى الرجاء ، ويسأل الخدم المعتمد فيأذن فى ورقتين لا تزيدان ورقة ، ويأخذهما ابن عمار ثم ينشئ قصيدته الخالدة :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح — وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية — فأنت إلى الأدنى من اللّه أجنح

حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع — عداتى وإن أثنوا على وأفصحوا[1]

وماذا عسى الأعداء أن يتزايدوا — سوى أن ذنبى واضح متصحح

---

[1] يقصد وإن تظاهروا بمدحى ثم أوغلوا فى ذمى .

نعم لى ذنب !! غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيصفح

وإن رجائى أن عندك غير ما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت ودّا وخدمة ... يكران فى ليل الخطايا فيصبح

وهبنى قد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح

أقلنى بما بينى وبينك من رضا ... له نحو روح اللّه باب مفتح

وعفّ على آثار جرم جنيته ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم ... فكل إناء بالذى فيه يرشح

وما ذاك إلا ما علمت فإننى ... إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح

وقالوا سيجزيه فلان بفعله ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

ألا إن بطشاً للمؤيد يتقى ... ولكن حلماً للمؤيد أرجح

وبين ضلوعى من هواه تميمة ... ستنفع لو أن الحمام مجلح[1]

سلام عليه كيف دار به الهوى ... إلىّ فيدنو أو علىّ فينزح

ويهنيه إن مت السلو فإننى ... أموت ولى شوق إليه مبرح

ويرسل ابن عمار بخالدته إلى المعتمد فيقرأها فيطرب ثم ينشدها على الجالسين مترنماً وقد هملت عبراته ، وكان بين السامعين

---

[1] مجلح : أى منحسر أو متقى .

أبو الوليد بن زيدون فحاول جهده أن يجد لنفسه مأخذاً إلى القصيدة فتأبت عليه ، ولكنه استطاع آخر الأمر أن يقول :

ـ ما أتفه قول الخائن :

وبين ضلوعي من هواه تميمة   ستنفع لو أن الحمام مجلح

وما يهمنا نحن بما بين ضلوعه ؟ ولماذا لم يرع لهذه التميمة حرمة ؟

ولكن المعتمد عاجله :

ـ بل إنه واللّه لم يفقد الذكاء وحسن الإشارة ... إنه ابن عمار وإن خان ، لقد قصد إلى بيت الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

وهكذا استعصت القصيدة حتى عن ذم الكارهين ... وحركت فى نفس المعتمد ذكريات قديمة ، وكان قد تهيأ لجلسة خمر فأرسل إلى ابن عمار أن يأتى ، وطلب ممن أرسله ألا يراه أحد وهو قادم بابن عمار ... وأخلى المعتمد القاعة وانفض القوم وهم لا يعلمون بما أسره للخادم ، ويجىء الصديق الشاعر ويجلس إلى المعتمد ويتذكران ويتناشدان حتى لتكاد النفوس تصفو ، ويشرق الصباح فيقول المعتمد لابن عمار :

ـ إياك ... إياك ابن عمار أن تقول لأحد عن جلستنا تلك ... إياك ابن عمار وإلا ...

ولا يكمل ؛ فقد كان ابن عمار يعرف تماماً ما بعدها ، وينصرف المعتمد إلى جناح نومه ويعاد ابن عمار إلى السجن والفرحة تكاد تنفجر من فؤاده ، فلا يملك نفسه أن يمسك الورقة الثانية الباقية لديه ويكتب إلى الراضى ابن المعتمد يخبره أن أباه قد صفح .

وتصل الورقة إلى الراضى وهو جالس بين صحاب فيهم من يبغض ابن عمار ويحقد عليه ، ولا يكتم الراضى ما جاء به الخطاب بل هو يذيعه .

ويصحو المعتمد فإذا سر الأمس هو حديث اليوم ، فيذهب إلى ابن عمار فى سجنه :

ـ أأذعت ما حذرتك أن تذيع ؟

ـ بل لا و...

ـ وحقى .

ـ ... وحقك .

ـ إذن فأين الورقة الثانية .

ـ أى ورقة ؟

ـ لقد أرسلت إليك ورقتين ، كتبت فى إحداهما القصيدة فأين الثانية ؟

ـ لقد ... لقد .... لقد سودت بها القصيدة .

ـ فهات التسويدة .

وتنغلق الطرق على ابن عمار ... فيبلغ الغيظ أقصاه بالمعتمد فيمسك بقطعة من حديد ذات مقبض كان قد أعدها ، ويهوى بها على رأس ابن عمار ، ثم ما يزال يضرب ويضرب حتى يموت ابن عمار بيد المعتمد ... بيد صداقة خمسة وعشرين عاماً ، بيد المجد الذى اقتعده .. بيد القمة التى ساورها ...

رقم الإيداع : ١٧٩٨٥ / ٩٩
الترقيم الدولى : ٩ ـ ١٣٣٩ ـ ١١ ـ ٩٧٧

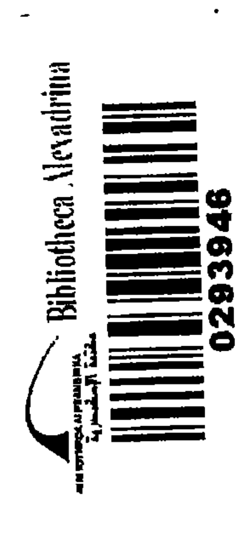
الناشر

مكتبة مصر

سعيد جودة السحار وشركاه

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠



الثمن ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة

سعيد جوده السحار وشركاه